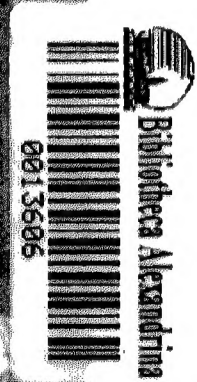


جورج صائد

رامة الشيطان

رواية



ترجمها عن الفرنسية وقدم لها :

الدكتور: علي نجيب إبراهيم

راية الشيطان

حقوق الطبع محفوظة

1994

دار الينابيع

«للطباعة والنشر والتوزيع»

دمشق ص.ب 6348

3324914 ☎

١- التوزيع في لبنان:

دار القارابي

بيروت - ص.ب: 11/3181

305520 ☎

٢- التوزيع في مصر:

دار النهار

20 ش. الطواحي - خلف مرور الجبل

د - فاكس 3489018

❖ الإخراج الفني: مي مكارم

جورج صائد

رامة الشيطان

«رواية»

ترجمها عن الفرنسية وقدم لها:

د. علي نجيب إبراهيم

العنوان الأصلي للرواية:

LA MARRE AU DIABLE

Georges Sand

تقديم

جورج صاند: حياتها ومؤلفاتها:

ولدت «آرماندين أورور لوسي دوبان Armandine Aurore Lucie Dupin» في الأول من تموز سنة ١٨٠٤، وكانت قد جمعت بين والديها ظروف غريبة، إذ كان والدها "موريس دوبان" ضابط أركان حرب في الجيش الفرنسي، بينما كانت والدتها "صوفي ديلابور" الفاتنة الجمال، راقصة في واحد من أرخص ملاهي باريس، لها علاقات مشبوهة مع عدّة رجال كان منهم قائد موريس في الجيش. وقد وصفتها جورج صاند في مذكراتها بقولها: "كانت أمي من النوريات الغجر، سليمة جنس منحط متشرّد .. وقد كانت - في فترة من حياتها - راقصة، أو بالأحرى شيئاً أحط من راقصة، في ملهى من أفقر ملاهي باريس سمعة! ... حتى قيضت لها الأقدار رجلاً موسراً أنقذها من هذا الوحل، ولكن ليفرض عليها حياة أكثر وحلاً! وحين التقى أبي بها كانت في الثلاثين، تعيش في دوامة من الفوضى الضارية "لكنّه كان ذا قلب كبير،

وقد أدرك أن الحسنة التعسة ما تزال قادرة على أن تُحب، وتهب قلبها مخلصاً لمن تُحب" (١)

لكنّ موريس دويان - وقد لاقى من أمّه المترنمة الوقورة رفضاً صارخاً لهذا الزواج - راح يؤجّل الأزمة حتى حملت منه صوفي، فعقدوا زواجهما سراً في ١٦ نيسان عام ١٨٠٤. وهكذا رأت "أورور" النور . إلّا أن الأتقار دارت باتجاه البؤس، حيث مات موريس على أثر سقوطه عن حصانه سنة ١٨٠٨. ممّا أرّث الضغينة بين الأم والجدّة، فاضطرت صوفي إلى أن ترحل إلى باريس تاركةً ابنتها في كنف جدّة ثرية (فهي حفيدة ملك بولونيا). وهنا عكفت الجدّة على حفيدتها بالرعاية الشاملة، فاستقدمت لها الأساتذة يعلّمونها الموسيقى، والعلوم الطبيعية، واللغة اللاتينية. وكانت استجابة الصبيّة تنمّ عن شحضية واعدة. على أنّ الجدّة مالبت أن أطلعتها على ماضي أمّها الملوّث، فأشعلت في داخلها روح التمرد، لتصبح مصدراً لإفلاقها، فما كان منها إلّا أن تدخلها ديراً في باريس، وحملت أورور أن تصبح متديّنة لأنّ جوّ التصوف أثر فيها. وبقيت الجدّة متخوّفة منها، فأعادتها إلى بلدة "نوهان" لتستأنس من جديد بالأجواء الريفية الهادئة، وتمتطي الجياد، وترتدي ثياب الصبيان، وتقضي الليل بالقراءة، وبقرأة روسو خاصة، يضاف إلى ذلك ما ربّبه عليها شلل جدّتها من واجبات. وكان ذلك سنة ١٨٢٠، حيث صارت أورور صبيّة ذات جمال

(١) - سلسلة كتابي لصاحبها ورئيس تحريرها «حلمي مراد»، تلخيص كتاب «حياة جورج صاند» لأندريه موروا، عدد ٢٣، كانون الثاني ١٩٥٤ ص ١٦٢.

متوحش "شقراء كالموريسك"، في عينيها شهوة متأججة، وفي داخلها غليان لا سكون له. ولما التحقت بأمها في باريس بعد أن ماتت جدتها في ٢٦ كانون الثاني عام ١٨٢١، بعثتها أمها لتقضي عطلة في ضيعة أسرة من أصدقاء الراحل موريس دويان، وهناك تعرّف ضابطاً شاباً اسمه "كازيمير دي دوثنان"، وهو ابن عم شرعي لبارون دي دوثنان، فتزوج منه في ٢٢ نيسان عام ١٨٢٢. لتكتشف، بعد حين، أن وراء لطفه ذكاءً شحيحاً. وبعد سنة ولدت "موريس" الذي لم يأت إليها إلاّ بالمزيد من الأسى على خطيئة ارتكبتها بسرعة لتجني النفور والقرف. وفي هذه الأثناء، وتحديدًا عام ١٨٢٥، التقت بالمحامي الشاب "أوريليان دو سيز" الذي ترافق تشجيعه لها على كتابة الشعر مع وقوعه في هواها. إنَّما بقيت علاقتهما عذرية.

في عام ١٨٢٨ جاءتهما بنت أسمياها "سولانج"، وما فعل قدومها أكثر من مقاومة عدم التفاهم. ويبدو أن "أورور" انجذبت إلى شاب يدعى "جبل صاند" وكانت لاتزال على علاقتها العذرية مع "دو سيز"، وسرعان ما تحوّل الانجذاب إلى حبّ حقيقي، روحياً وجسدياً؛ ذلك لأن علاقتها الشهوانية مع "ستيفان دي جراند ساني" التي بلغت معها أوج انحدارها، لم ترو ظمأها إلى اتحاد متكامل مع فتى أحلام يجعل منها إلهةً للحُبِّ والجمال. وهكذا لحقت فنهاها "صاند" إلى باريس معلنةً تمزّق أسرتها، وإن هي لم تعلن نهايتها عندما أرغمت زوجها على الإذعان لتزويدها بثلاثة آلاف فرنك، وللبقاء مع الأولاد في نوهان، ولما كان -- هو الآخر -- متورطاً في الخيانة الزوجية، نزل عند

رغبتها في أن تبقى ستة أشهر في باريس وستة أشهر في نوهان. ومنذ ذلك العام (١٨٣١) بدأت تنشر كتاباتها في "الفيغارو" موهرةً باسم "جيل صاند" (نشرت قصتين ورواية عنوانها "وردي وأبيض"). وما هي إلا سنة حتى تشبَّ نار الخلاف مع "صاند"، وتعلَّ القطيعة، لذلك راحت أورور تبحث عن اسمٍ يلائم كنية "صاند"، واختارت بسرعة اسم "جورج". وفي هذه الأثناء نشرت روايتين: "آنديانا"، و"قلالنتين" وخلقت عند الجمهور حماساً ملحوظاً لأسلوبها. وفي عام ١٨٣٣ كتبت رواية "إليسا" جسّدت فيها بأسلوب غنائي فلسفي، أزمة عميقة ومؤلّمة، فبعد مغامرة شقيقة مع "بروسبير ميريميه"، اعتقدت أنها تكتشف السعادة كاملة وراء ملامح شاعر شاب وفي الثانية والعشرين من عمره يُدعى "الفريد. دو موسيه. A. de Musset" وإنسان رحلتها معه إلى إيطاليا في ١٢ كانون الأول من عام ١٨٣٣، وبينما كانا في مدينة فينيسيا راحت جورج صاند تشكو من الالم في رأسها، ومن الازدياد، فتضايق منها الفريد ولقبها باللقاب تعبر عن انزعاجه من "الإزعاج المشبه"، والحلّة، والبلهاء، والراهبة (١)، ونتيجة ذلك انصرفا إلى الحجرة وازدياد الأماكن المشبوهة، فانتهى إلى حاله من المرض خطورة الغاية. ومع أنّ جورج نحّضته خالص عنايةها، فقد كفّت عن أن تكون أكثر من "أخت لجانسان"، لأن قلبها خفّق لطبيب شاب حسن الطلعة هو "بييرو باجيللو". وما كان

(١) انظر: لوغوتير (ادموند)، مقالة «رأمة الشيطان» باريس، ١٩٦٤ ص (١)

موسيه " يعرف طرفاً من الحقيقة حتى غادر فينيسيا عام ١٨٣٤ مخفياً من حياتها. أما هي فمكثت هنالك بضعة أشهر لتكتب رواية "جاك" و "آندريه" و "رسائل موقتل". ولما عادت إلى باريس عام ١٨٣٥، أعاد "موسيه" العلاقة إلى سابق عهدها، لكنّه، بعد أن علم من أحد الرشاة أنّها خاتمه في فينيسيا، صمّم على إنهاء كلّ شيء بينهما. فاستغاث جورج متأسّفةً، ونزلت في رجائها له إلى حد الصّعّار، ولم يستجب. فانسحبت إلى "نوهان" مُتَخَنَةً بطعنات الألم والانكسار. على أنّ هذه النهاية كانت مؤثرة فيهما إلى حد أن موسىه روى قصتها في كتابه "اعتراف طفل العصر"، عام ١٨٣٦، بينما روتها جورج صاند في "هو وهي" عام ١٨٥٩.

بقيت جورج صاند في بلدتها "نوهان" من عام ١٨٣٥ - ١٨٣٧، حيث استطاعت أن تربح دعوى انفصالها عن زوجها البارون ديدلوفان، بمساعدة صديقها المحامي الموهوب "ميشيل دوبورج". وعندئذٍ تعود جهازة إلى الأنكار الجمهورية التي كان يدعو إليها هذا المحامي. بيد أنّها، منذ ١٨٣٦ مالت إلى دعوة "لاموئيّه" حاملةً بتحرير النساء من قيودهن، والحال أن "لاموئيّه" كان يسعى لتحرير الرجال. وقادها طبعها القُلب إلى الإعجاب الحماسي بأفكار صديقها المصلح "بيير لورو P.Leroux"، الداعى إلى أن الدين قابل للتحسين، وأن كبار المراطقة ليسوا إلا رواداً. وكانت صاند تريد أن تكون "المشيعة لهذا الإنجيل الجديد" على جناح السرعة. وهكذا كتبت بوحى من ذلك

"سبريدون" عام ١٨٣٩. و"كونسيلو" عام ١٨٤٣. و"كونتيسة رودلستان" عام ١٨٤٤.

ولم ينقض هذا الزمن دون توق العاشقة إلى معشوق، ففي سنة ١٨٣٨ تبدأ قصتها مع "شوبان" لتستمر قرابة عشر سنوات رغم بدايتها بِحَيَّةٍ مُرْعَبَةٍ، ففي أثناء وجودهما في "ماجورك" حيث رحلا معاً، اشتدَّ البرد وتَساقَطُ الأمطار، فكاد "شوبان" يموت من الحساسية التي كان يعاني منها في صدره. وكان على جورج أن تسهر على مريضها الشاحب، المرتعد من البرد، الذي يخلخله السَّعال. مما حوَّل عاطفتها تجاهه إلى حنان هادئ، وعزاءٍ أُمومي لا يخلو من الضيق.

وبين عامي ١٨٤٥-١٨٥٣ كتبت سلسلة رواياتها التي أعطتها عنوان: "الرعوية"، تعبّر فيها عن أكثر ما يأسر قلبها : الحلم بالاشتراكية، وحب منطقة "بيري Berry" الريفية. ويمكن اعتبار روايتها: جان (١٨٤٤)، وطحّان أنجييو (١٨٤٥)، مقدّمة لمجموعة الروايات التي جمعتها تحت عنوان: سهرات مُصنَّع القنّب وهي : رامة الشيطان (١٨٤٦)، وفرانسوا لو شامي (١٨٤٨)، وفاؤيت الصغيرة (١٨٤٩)، ومُعَلِّمو التزمير بالقرب (١٨٥٣).

وفي عام ١٨٤٨ تضح جورج صائد نفسها في خدمة الثورة حيث تساهم في توضيح "الاختيارات والمخاذير" لـ "لودرو" رولان" الواقع تحت تأثيرها،

وتكتب رسائل للطبقة المتوسطة، وللأغنياء، وللشعب، وتؤسس جريدة "قضية الشعب"، كما أنها صاغت "بيان الجمهورية" متعاونةً مع "باريس"، هادفة إلى المصالحة الوطنية. إلا أنها تخاف من عواقب انتفاضة العمال الباريسيين في حزيران، فتلوز بـ "نوهان"، ولما فاز حزب "النظام" وانسحق الجمهوريون المعتدلون في أيار عام ١٨٤٩ كانت في باريس، وودت لو تقاوم، لكنها شعرت أنها ليست أكثر من امرأة ضعيفة خائفة من التوقيف، ومُشفقة على حظها، داعية نفسها بـ "الكائن الأكثر مُسألة على الأرض".

بين عامي ١٨٥٣ و١٨٥٦ تعيش "صاند" فترة من همود الموهبة، فلا تكتب سوى "قصّة حياتي"، وبعض المسرحيات والروايات ذات المستوى الضعيف. وإلى جانب ذلك تركت نفسها لطبيعة نوهان فتعاشرها جامعةً منها النباتات والحشرات. وبدءاً من عام ١٨٥٦ تعود بحماسة إلى كتابة الرواية التي تخلصها من عبودية المسرح، وتوفّر لها الحرية الكبرى. إلا أن إلهامها ينشبت بين الرواية التاريخية (أسياذ بوا-دوريه الجميلون ١٨٥٨)، والرواية المدنية (يوحنا الصخره ١٨٥٩، وماركيز فيلمار ١٨٦٠)، ورواية الأطروحة (الآنسة كاتيني ١٨٦٣، وثورية الأمس تغدو بورجوازية).

وأخيراً تأتي الشيخوخة لتمتدّ على أحد عشر عاماً تستقر صاند خلالها في نوهان، مع أنها لم تقطع اتصالها بالكتاب الشباب في باريس، ولا ارتياحها لمجالس "فلوير"، ومراسلتها المستعادة بعد زمن طويل. وما كانت الشيخوخة

تُضَمُّ مضجعها ؛ لأنها استقبلتها - كما يقول موروا - بعدم اكتراث.
وعندما جاء الموت في ٨ حزيران عام ١٨٧٦، كان عودةً إلى الأرض حيث
الخضرة التي رقدت صائد في وسطها، والتي طالما أحبَّتها وكتبت عنها رغم
هَيْجَان ذاتها واضطراب ظروفها.

رواية "رامة الشيطان":

ثمة أمران يستوقفان قارئ هذه الرواية وناقدها على السواء:
أولهما أن الكاتبة استوحيتها من لوحة للفنان الألماني "هانس هولباين الابن (١٤٥٧ - ١٥٤٣) عنوانها "الفلاح والموت"، فقرنت بينها وبين ماكانت تراه حولها في حقول "نوهان" في أثناء موسم البذار، محوِّلة موضوع روايتها من ظلامية الموت إلى ضياء الحياة. وبهذا أعطت للمسافة الجمالية التي يفترضها فعل الإبداع بُعدين: البُعد بين لوحة شغفورة لها قوانينها وطبيعتها، ورواية لها طابعها ووسائلها الخاصة، والبُعد بين الواقع الذي يُحيط بها، والواقع الحكائي الذي صاغته بوساطة اللغة. وبعبارة أدقّ نقول: لقد حقّقت ما يسمّى بـ"تراسل الفنون" (١) حيث توحى القصيدة باللوحة، ويوحى التمثال باللحن الموسيقي. وقد يقوم الفنان بتوظيف عمل فني في عمله هو، على نحو ما فعل دوستوففسكي بلوحة "المسيح ميتاً" المرسومة سنة ١٥٢١، للفنان الألماني هانس هولباين نفسه، إذ كان قد رآها في درسدن بحسب ما تُخبرنا زوجته في مذكراتها، فظلّ مُتسمراً أمامها أكثر من عشرين دقيقة، وكادت هذه الدقائق من التوتّر الروحي تنتهي بنوبة صرع. ولما كتب روايته "الأبله" جعل هذه

(١) انظر: سورويو (ايبين)، تراسل الفنون، باريس، فلاماريون ١٩٤٧، حيث يرسم لي هذا الكتاب معام نظرية عامة للفنون أساسها «تراسل الفنون» La correspondance des arts.

اللوحة في بيت إحدى شخصيات الرواية: "روغوجين"، وعندما رآها "هيوليت" أدرك الفرق بين ماكان اعتاده الفنانون في رسم المسيح إما على الصليب وإما بعد نزوله عنه، مع وميض الجمال في وجهه الذي يفوق الطبيعة، ولوحة هولباين التي تصوّر تصويراً كاملاً جسمانياً إنسانياً يعبر عن جميع العذابات التي لاحدود لها مما احتمله حتى قبل صُلبه. ففيها آثار الجروح وآثار اللطمات والضربات التي أمطره بها حُرّاسه والناس حينما كان يحمل صليبه ويقع على الأرض^(١). والغريب أو محض المصادفة أن يستلهم دوستوفسكي وجورج صائد روايتين من لوحات فنّان واحد. لكن طابع الإدانة الذي تحمله لوحاته لمجتمع القرون الوسطى وتعسّف رجال الكنيسة لاقى صداه عند روحهما النقدية المشبعة بالتطلّعات الرومانتيكية المثالية. ومن ثمّ ندرك أن تراسل الفنّون لايعني تطابقها، بل يعني تفريغ دالاتها وتلوينها ذلك التلوين الذي نلاحظه في رواية "الأبله"، وفي "رامة الشيطان".

والأمر الثاني أن جورج صائد جعلت من أوّل ثلاثة فصول من روايتها مجالاً لشرح أفكارها، ولتوضيح الرؤية الجمالية الرومانتيكية التي آمنت بها ودافعت عنها ضمن إطار اشتراكي طوباوي. ولعلّ الأثر الأكبر في أفكارها يعود إلى "جان جاك روسو" الممثّل لأوسع ردّة فعل ضدّ الموضوعية الصارمة

(١) النظر: دوستوفسكي، الأبله، ترجمة سامي الدروبي، مراجعة «أبو بكر يوسف»، دار رادوغا، موسكو، الجزء الثاني، ص ١٦٥.

لعقلاني القرن الثامن عشر^(١) ، حتى إن دفاعه عن المشاعر في مقابل العقل يُعتبر واحداً من المؤثرات القوية التي شكّلت الحركة الرومانتيكية^(٢) بما أسندته إلى مشاعر الانسان الطبيعية من قدرة على هدايته إلى الطريق الصحيحة، زاعمة أن العقل مضلل مما يعني أن أي فعل يقوم به الانسان مُسوَّغ مادام عائداً إلى أسس انفعالية عند صاحبه؛ إذ يُفضي المرء إلى عبادة انفعالاته، وإلى قصر مفهومات الغيب على الطبيعة، فلا شيء خارج الطبيعة . وتلازم ذلك مع إيمان الرومانتيكيين ببساطة الحياة مهما عانى الإنسان من غاظرها "وهكذا انبثقت الفكرة المصطنعة بالصيغة المثالية، فكرة الفلاح الفقير الذي يحيا حياة شظفٍ من جهده الذي يبذله في قطعة أرضه الصغيرة، ولكنه يعوِّض عن هذا بأن يعيش حرّاً، ويظل بمنأى عن فساد حضارة المدن"^(٣).

وعليه فإن حياة "صائد" العاطفية المتقلبة إلى حدّ الشذوذ والحسيّة الصارخة تجسد تفسيراتها في العبودية الرومانتيكية للعاطفة ، وربطها بالحرية الفردية التي تتغنى بحمال الطبيعة وتفتّح الحياة، والاسترسال مع الأحلام. فأورور كانت تريد ارتواءً روحياً من حُبٍ يعبر عن طابع العصر السائد الذي

(١) انظر: آيه شولمان، و «لوييلوا» الأدب الفرنسي كما يراه النقاد المعاصرون، باريس ١٩٦٣، ص. ٤٨٨ - ٥٠٧.

(٢) انظر: مرسل (برواند)، حكمة الغرب، ترجمة د. فؤاد زكريا، عالم المعرفة، الكويت، ج ١٢٧، ١٩٨٣، ص. ١٥٤ - ١٥٥ .

(٣) نفسه، ص ١٤٦ .

دفعها لثُمَّلَ دور آلهة الشعر الرقيقة، الوديعَة^(١). وأغلب الظن أنها واعدت بين استجابتها الإبداعية واستجابتها العاطفية لجمال الطبيعة والحياة، وقد لا يكون في هذه المواءمة ما يناقض منطق التفكير، والتفكير الرومانتيكي الحالم خاصة. لأنها بقدر ماتتطلب من حرية، تنطوي على البساطة في أكثر من جانب؛ ولما كانت البساطة لاتتمتع دوماً عن الجمال أو ما يقاربه، فلا ضرورة أكثر إلحاحاً من تجميلها وإظهارها في ثوبها المؤتمل مثلما نجد في قصة "رامة الشيطان": فلاح شاب فقير، طيب، يتزوج من بنت السيد موريس الميسور، فتموت زوجته بعد أن تلد له ثلاثة أولاد. فيحضره حموه وحماته على الزواج ثانية. ويدلّاه على أرملة من بلدة "فورش"، ويهيئ نفسه للسفر (رغم أن المسافة بين نوهان وفورش قرية جداً، لكنها بعيدة في نظر فلاح لا يرحل أرضه). وتطلب منه السيدة "غيث" أن يصطحب ابنتها "ماري" معه ويوصلها في طريقه إلى مزارع "أورمو"، وبالخيلة يفرض ابنه "بيير" نفسه ويذهب معها يحملهم جميعاً الفرس الصهباء في ركب حزين مرتبك: فالصبيّة حزونة على أمها، والفلاح لا يريد هذه الزينة المجهولة المعالم في ذاته المتعودّة على علاقات مباشرة صريحة لاتسمح له أعماله في حراثة الأرض وزراعتها بأن يتجاوزها. ونتيجة ضياعهم في الغابة، معتقدين أن "رامة الشيطان" هي السبب، يضطرون لقضاء الليل تحت الأشجار. وخلال السهرة بدأ "جرمان" يشعر بـ "ماري" ويترك نفسه

(١) النظر: سلسلة كتابي، نفسه، ص. ١٧٠-١٧١.

على سجيّتها طالباً منها الزواج، فتُعْرض عن ذلك بحجّة أنها فقيرة، وفي اليوم التالي يتابعون طريقهم، فيذهب جرمان إلى الفورش، وتذهب ماري وبير إلى مزارع (أورمو)، وهنا يجد كلٌّ من جرمان وماري عكس ما يطلبان: فالأرملة لم تكن سوى متبرّجة تلتذّذ بتجميع المُعْجَبِينَ حولها، وصاحب المزارع الذي استأجر ماري لتعمل راعيةً عنده لم يكن أكثر من زير نساء حاول الاعتداء عليها .

وأنقذها منه جرمان فيما بعد. لكنه لم يستطع أن يفهم أنها تحبّه كما يحبها وأوشك على الهزال غارقاً في بحرٍ من الكآبة لولا إدراك حماته لأسباب حزنه، واستئذان العم موريس كي يعطيه موافقته على مفاتحة ماري بالأمم وطلّبهـا. لتنتهي الرواية بموافقتها على الزواج منه. وهكذا تمكّنت جورج صائد أن تقدّم وجهة نظرها عن "بساطة الجمال" عبر شخصيات بسيطة، وعلاقات بسيطة كذلك: فالأب والأم موريس إنسانان خيران يتمنيان السعادة للناس جميعاً، والسيدة "غُيَّيت" فقيرةٌ، طيبةٌ، حَسَنَةُ الظن. وجرمان يحب أن يبقى لصيقاً بأرضه شأنه شأن فلاحي منطقة الـ "بيري" كلهم. وقلّما كان يارحها إلا يوم سُوق الحبول. وعندما حاول أن يقصر الطريق إلى فورش متبعاً طريقاً غير التي كان يعرفها، ضاع، وعانى الكثير حتى عرف الاتجاه الصحيح .

انطلاقاً من هذه العفوية أقامت جورج صائد دعائم نظريتها النقدية ناظرةً إلى الرواية على أنها عملٌ يتضمن الشعر والتحليل في آن معاً. ويجب أن تجسّد

طباعاً واقعيةً، وأحداثاً وظروفاً حقيقية تدور حول محور نموذج بشري يكشف فكرتها الأساسية، ويمثل، بصورة عامة، عاطفة الحب، لأن الروايات، في جوهرها، قصص حب. وعلى الكاتب الروائي أن يرسم الحب في تجليته الأمثل، وبالتالي أن يُؤمّن نموذجاً دوغماً خشيةً من حقيقته. بما ينبض في ذاته من مشاعر البهجة والألم، حتى لو تجاوز في ذلك المؤلف عند الناس العاديين. فغفرة حكايته لا تستلزم أن يترك أبطاله لمصادفات الأحداث، تائهين، ولا فرصة لديهم ليحققوا في الحياة انتصاراً هاماً.^(١)

لقد كانت جورج صاند تُنادي بأدب ذاتي لا يتفق مع اتجاه صديقها "فلوير"^(٢) الذي دعا إلى حيادية الكاتب وموضوعيته. كما أنّ في النماذج المؤتملة مايكاد يناقض نظرية بلزاك في إعادة إنتاج التاريخ^(٣). ومن أجل ذلك تتسم المقدمة النقدية لـ "رامة الشيطان" بأهمية ملحوظة قد تُشكّل مع "مقدمة كرومويل"^(٤) لـ "فيكتور هيو" ما يمكن تسميته بـ "البيان الرومانتيكي". إضافة إلى أنّ كشف الكاتبة لأسرار روايتها، وربطها برؤيتها النقدية يكوّنان ظاهرة

(١) انظر: صاند (جورج) قصة حياتي، كالماليفي، باريس ١٨٥٤، الجزء الرابع، ص ١٣٥.

(٢) انظر: صاند (جورج)، رسالة إلى فلوير بتاريخ ١٨٧٦/١/١٢، حيث تدعو فيها إلى أدب ذاتي.

(٣) انظر: بلزاك، مقدّمة الكوميديا الإنسانية، طبعة ١٨٤٢، إذ يرى أن على الكاتب الروائي أن يخلق عالماً متكاملًا.

(٤) منشورات مؤسسة المنشورات الأدبية والفنية، مكتبة بول أولاندور، باريس ١٩١٢. ولشير إلى أننا بصدد ترجمة هذه المقدمة، ومنشرها في وقت لاحق إذا شاء الله.

لابدً من الإشارة إليها وهي أن فعل الإبداع ينجح إلى توجيه "فعل القراءة" وتحديد مساره. فهل نعتبر ذلك ثروةً لاطائل من ورائها تُسيء إلى عذوبة القصة المروية، على غرار ما ارتآه "سانت بوث" (١) و "غوستاف بلانش"، أم نأخذ بالحسبان أن جورج صاند كانت تطمح إلى تعليم الغني احترام الإنسان الكادح، وتعليم الفقير أن يحترم نفسه (٢)، فَلَجأت إلى هذه المقدمة ذات الوقع الخطابي؟ .

على أية حال، كانت رواية "رامة الشيطان" ولا تزال أغنية لمن يكسبون لقمة العيش بعرق جباههم، لملوك الأرض كما تسميهم جورج صاند. والأولى أن يعيش القارئ القصة التي تحكيها عن واحدٍ منهم ليتذوق بنفسه ما يمكن أن يُغنيه عن القراءات النقدية كلها.

ويبقى أن نلفت النظر إلى لغة الرواية التي نطقتها الشخصيات بلهجة منطقة "بيري"، ولم يكن أمامنا إلا المحافظة على بساطتها الريفية مستعينين بلغة عربية مبسطة قريبة من لهجة الفلاحين ومعجمهم اللغوي، آمليْن أن نكون قد وُفّقنا في ذلك.

د. علي نجيب إبراهيم

(١) النظر: ادمون لوشوتير، مقدمة «رامة الشيطان» ص ١٣.

(٢) من رسالة كتبها جورج إلى «بولسي» بتاريخ ١٢ أيلول عام ١٨٤٤.

توضيح بقلم الكاتبة: (١)

عندما بدأت، من خلال "رامة الشيطان"، بتأليف سلسلة من الروايات الرعوية التي كنت أنوي جمعها تحت عنوان: سهرات مصنّع القنّب (٢)، لم يكن لديّ أيّ منهج، ولا زعم ثوري في الأدب. فلا أحد بمفرده يقوم لنفسه بشورة، وثمة ثورات، في الفنون خاصة، تصنعها الانسانية دون ان تعرف جيداً كيفية صنعها؛ لأنّ العالم كلّ يتحمل إشعالها. لكنّ هذا لا يمكن تطبيقه على رواية الأخلاق الرعوية. فقد وجدت في كلّ عصر، وبمختلف الأشكال الفخمة تارة، والمتكلفة تارة ثانية، والساذجة تارة ثالثة (٣)، قلت هذا سابقاً، وينبغي أن أكرّر هنا، الحلم بالحياة الرعوية كان دائماً المثل الأعلى للمدن وحتى للقصور الملكية. وأنا لم آت بمجديد إذ أتبع المنحدر الذي يقود الانسان المتحضّر إلى سحر الحياة البدائية. ولم أُرِدْ خلق لغة غير موجودة، ولا البحث عن طريقة جديدة. ومع ذلك فقد أكدوا لي ذلك في عدد كبير من المسودات، غير أنني أعرف أكثر

(١) كتب جورج صالند هذا التوضيح المكتسب سنة ١٨٥١ لتصوير الطبعة الشعبية لمؤلفاتها التي أشرف على نشرها «طولي جوهانو» و «موريس صالند».

(٢) صنّاع متجول كان معروفاً في فرنسا حتى نهاية القرن التاسع عشر، تصفه جورج صالند في قصتها: «أعراس ريفية» بأنه إنسان فصيح، متحدث لبق، ولزّار، وحكواتي، ومُغنّ، يُحب أن يُثير الضحك، لكنه لا يكره أن يمتنع ياخافة الآخرين.

(٣) تقصد صالند بالأشكال المتكلفة والفخمة رواية «آسريه» لـ «هولوربه دورفيه»، وبالساذجة رواية «بول وفرجين» لـ «براردان دوسان بير». وقد كان الكاتب الإغريقي «لويجيوس» أوّل من ألف روايات الأخلاق الريفية.

من أيّ شخص آخر سبب حذري من مسوداتي الخاصة، وأعجب دائماً من أن النقد يبحث فيها مطّولاً في الوقت الذي تكون الفكرة الأيسر، والظرف الأكثر عادية، هما وحدهما المصدر الذي يجب أن يوحى بالأعمال الفنية.

أما رواية "رامة الشيطان" بصورة خاصة، فبحكم أنني وضعت في مقدمتها لرحمة مخفورة لـ "هولباين" كانت قد صدمتني، وإمام ناظري مشهد حقيقتي كنت أراه في اللحظة نفسها أثناء موسم البذار، هو ما دفعني إلى كتابة هذه القصة المتواضعة، الواقعة وسط مناظر بسيطة كنت أتجول بينها كل يوم .

ولو طُلبَ إليّ ماذا كنت أريد أن أفعل، لأجبت أنني كنت أبغي أن أخلق شيئاً جدّ مؤثر وجدّ بسيط، ولم أنجح في تحقيق رغبتي. لقد رأيت الجميل في البسيط وأحسسته تماماً. إنّما رؤية الشيء وتصويره أمران مختلفان! وجماع ما يستطيع الفنان رجاءه على أفضل وجه، أن يلزم من لهم عيون بالرؤية أيضاً. إذاً انظروا البساطة بشكل خاص، وأنتم، أيّها الآخرون^(١)، انظروا السماء والحقول والأشجار، وانظروا بالتحديد الفلاحين بما فيهم من. غير وحقيقي: سوف ترونهم قليلاً في روايتي، وسترونهم في الطبيعة بصورة أفضل بكثير.

جورج صائد

نوهان ١٢ نيسان ١٨٥١

(١) تقصد هنا البورجوازيين وأبناء المدن، والمفكرين الذين لم يكونوا يعرفون الجمال الحقيقي للطبيعة.

الفصل الأول

من المؤلف إلى القارئ

بعمق وجهك
تكسب حياتك البائسة
ويعد عمل وخبرة طويلين
ها هو الموت يراففك (١)

القصيدة الرباعية المكتوبة بالفرنسية القديمة، الموضوعت تحت لوحة للفنان "هولباين"، ذات حزن عميق في بساطتها. تُظهر اللوحة المحفورة فلاحاً يقود محراثه وسط حقل تمتدّ حوله حقول واسعة في البعيد. نرى فيها كوخاً بائساً، بينما تغيب الشمس وراء الرابية. إنها نهاية يوم شاقّ من العمل. الفلاح العجوز المربوع القامة يرتدي ثياباً عتيقة، والأحصنة الأربعة المكدونة التي يسوقها أمامه هزيلة متعبة. السكّة تغوص في عمق الأرض الوعرة الصعبة، وكائن وحيد ذو حيوية ونشاط في هذا المشهد من العرق والظنى. وهذا شخصٌ عجيب،

(١) هذه القصيدة مستوحاة من سفر التكوين (٣) حيث يقول الرب لآدم: بقرق وجهك تأكل خبزاً حتى تعود إلى الأرض التي أخذت منها». الإصحاح الثالث.

هيكل عظمي مُسلَّح بكرباج، يركض بين خطبوط الفلاحة إلى جانب الأحصنة المدعورة، يضربها ويعمل خادماً لخرات الفلّاح العجوز. إنّه الموت، هذا الشبح الذي ترجمه "هولباين" ببلاغة في تسلسل الموضوعات الفلسفية والدينية، الكئيبة والمضحكة في آن معاً، المعنون بـ "ظلال الموت".

في هذه المجموعة، أو بالأحرى في هذا التركيب الواسع حيث الموت ... اللاعبُ دوره على الصفحات كافة - هو الرابط والفكرة المهيمنة، استحضّر "هولباين" العظماء والمتبحّرين، والعاشقين واللاهين، والسكارى، والراهبات، والعاشرات وقطّاع الطرق، والفقراء، والمخارين، والنسّاك واليهود، والجنّالين، وكلّ الناس في عصره (١) وعصرنا، وشبح الموت في كلّ مكان يسخر، ويهدد، ويتنصّر. ولا يتخفى إلاّ من لوحة واحدة (١). وهي اللوحة التي تصوّر لِعازر (٢). المسكين وهو نائم على مزبلة عند باب الغنيّ، مُسلناً أنّه لا يخشى الموت، إذ ليس لديه ما يخسره، وما حياته سوى موتٍ سابقٍ لأوانه.

(١) يرى «ادولف لوغوتير» الذي قدّم للطبعة الفرنسية لرامه الشيطان وعلق عليها أن لهولباين أكثر من لوحة يخلو موضوعها من الموت.

(٢) يظهر لِعازر في الإصحاح ١٦/ من إنجيل «لوقا» (١٩-٣٦)، كان مقروحاً، ومات من الجرع أمام باب الغني، فحملته الملائكة إلى سيدنا إبراهيم، حيث عاش في النعيم بينما دخل الغني النار. وصاند تلمّح إلى رباعية أخرى منقوشة مع لوحة «هولباين».

فهل كانت هذه الفكرة الرواقية للمسيحية نصف الوثنية لعصر النهضة عزاءً تاماً ، وهل وجدت فيها النفوس المتدنية مبتغاها؟ إنَّ الطَّموح، والمحتمل، والظالم، والفاقد، كلَّ هؤلاء الصيادين المتعجرفين الذين يعيشون بالحياة، والذين يجرِّهم الموت من جُمَّاتهم، سيكونون مباركين دون شك. لكنَّ الأعمى المتسول، والمجنون والفلاح الفقير، هل سيعوضهم عن بؤسهم المستديم اعتقادهم الأوحـد بأن الموت ليس شراً في نظرهم؟ لا! إنَّ حزناً لا يُقهر وحتمية مرعبة تضغط على مؤلِّف الفنان. وهذا يشابه لعنة مرَّة مصوبة على مصير الإنسانية.

ها هنا، بالضبط، الهجاء الأليم، والتصوير الحقيقي للمجتمع الذي كان أمام عينيَّ "هولباين". الجريمة والبؤس هما ما كانا يصدمانه، إنما نحن، فناني عصر آخر، ماذا سنصوِّر؟ هل سنبحث في فكرة الموت عن تكريم الإنسانية الراهنة؟ وهل سنتضَّرع إلى الموت من حيث هو عقوبة الظلم وتعويض الألم؟

لا، لم تعد لنا قضية مع الموت ، إنما قضيتنا مع الحياة . لم نعد نعتقد لا بِعَدَمِيَّةِ الْفَقْرِ، ولا بِسَلامِ مُشْتَرَى بِعُزُوفٍ قَسْرِيٍّ (عن الدنيا)، نحن نريد أن تكون الحياة نَحِيرَةً، لأننا نريدها أن تكون غَنِيَّة. يجب أن يبرح "لُعَازِر" مزبلة حتى لا يعود الفقير يسعد لموت الغني، وينبغي أن يكون الجميع سُعداء، كي لا تكون سعادة أَحَدٍ جرائمية يلعنها الله. يجب أن يعرف الفلاح وهو يذر قمحه أنه يعمل لِصُنْعِ الحياة، ولِأَيْتِهَجِ لَذاكَ الذي يُحِيط الموت بِجَانِبَيْهِ. وأخيراً يجب ألا يكون الموت بَعْدُ لِعَقُوبَةِ التَّكْسِيرِ، ولا سُلُوى لِلضِّيقِ، لأن الله لم يقدِّره لا

للمباركة ولا للتعويض، بل قدرّة للحياة، لأنه بارك الحياة، ولا يجوز أن يكون القبر ملجأً يُسمَحُ بأن نرسل إليه أولئك الذين لا نريد أن نجعلهم سعداء. (١)

يَهَيِّمُ بعض فنّاني عصرنا - وهم يُلقون نظرةً جذّيةً على ما يحيط بهم بتصوير الألم، ودناءة البؤس، ومزلة إعازر، فهل هذا مجال الفن والفلسفة؟ يمكن أن يكون هذا من ميدان الفنّ والفلسفة، لكن هل تتحقّق غايتهم بتعرية البؤس البشع، الخسيس والذليل والجراثمي أحياناً، وهل أثر ذلك صحيّ دائماً كما يريدونه؟ نحن لا نجرؤ على التصريح بشيء إزاء هذا. إنّا نستطيع أن نُحدّث أنفسنا بأنهم، مع إظهار هذه الهاوية المخفورة تحت التراب الهش للشراء، يُخيفون الغنيّ السيء، مثلما كانوا، في زمن الرقص المائمي (٢)، يجعلونه يرى حفرة الغاغة فاها، والموت مستعدّ لربطه بين ذراعيه الوسخين (٣) واليوم نريه السارق يخلع بابه، والجرم يصرّد نومه. ونقرأ أننا لاندري كيف سنصلحه مع الإنسانية التي يحتقرها، ولا كيف نجعله يُحسّ ببؤس فقير يخشاه، ونحن نريه هذا الفقير محكوماً بالأشغال الشاقة وهارباً أو مُتسكّعاً ليلاً. لم يجد الموت المرعب - الذي

(١) تستقي صائد هذه الأفكار الإنسانية من دعوة صديقه المصلح الإنجليزي «بير لوزر» القائمة على العناية الاجتماعية الخيرية.

(٢) أي المصور الوسطى حيث يظهر موكب يقوده الموت نفسه كما يصوّر النيمر وفنّ عمارة الآثار المسيحيين.

(٣) في اللوحة (١٠) و (٣٣) من « ظلال الموت»، يبدو الموت وهو يخرج جرح ضحاياه نحو «حفرة فاغرة».

يَصِرُّ أنيابه، ويعزف على الكمان في صور "هولباين" وسابقه - وسيلة، من هذا النوع، لهداية الفاسقين، ولتعزية الضحايا. أو يعني ذلك أنَّ أدبنا لن يُفضي إلى قليل من هذا كما أفضى فنانون العصر الوسيط، وعصر النهضة؟

شاربو الخمرة في لوحات "هولباين" يملؤون كؤوسهم بجنون لبيعوا فكرة الموت التي تخدعهم باعتبارها نديماً مع أنهم لا يرونها. ويطلب أغنياء السوء هذه الأيام تعزيزات ومدافع لاستبعاد فكرة "الفلاحين" الذين يُظهرون القن يعملون في الظلّ بل، على الأدق، ينتظرون لحظة الانقراض على الواقع الاجتماعي. كانت الكنيسة في القرون الوسطى تستجيب لأخطاء جبابرة الأرض ببيع صكوك الغفران، وحكومة اليوم^(١) تهديء قلق الأغنياء يجعلهم يدفعون الكثير من رجال الدرك، والسجانين، وكماثم الأفواه.

"ألبر دورير^(٢)" ، و "مايكل أنجلو^(٣)" ، و "هولباين" و "كالو^(٤)" و "غويا^(٥)" ، خلقوا هجائيات قويّة لأخلاق عصرهم وبلدانهم. إنّها لؤلؤات

(١) أي حكومة «غيزو» رئيس حزب «المقاومة» ونصير الثورة ، كان رئيساً للوزراء بين ١٨٤٧ - ١٨٤٨.

(٢) (١٤٧١ - ١٥٢٨)، رسّام وحفّار ألماني جسّد في أعماله كثيراً من مشاهد بؤس الرُّبَا.

(٣) (١٤٧٥ - ١٥٦٤)، الرسّام الإيطالي المعروف صاحب اللوحة الجلدارية لـ «العشاء الأخير» في كنيسة «سيكستين».

(٤) (١٥٩٢ - ١٦٣٥)، من اللورين، رسّام لوحة «عذابات الحرب».

(٥) (١٧٤٦ - ١٨٢٨)، رسّام إسباني عكّس في أعماله لكبات الحرب.

خالدة، وصفحات تاريخية ذات قيمة لاجدال فيها، إذا نحن لانريد أن ننكر على الفنانين حقهم في سر جراح المجتمع، وتعريتها أمام عيوننا؛ لكن ألا يوجد شيء آخر نفعله الآن غير تصوير الرعب والتهديد؟ في أدب الألفاز والجور هذا حيث تَكَيَّفَ الخيالُ والموهبةُ مع ذوق العصر، نحن نُحِبُّ الرسوم العذبة المنسابة أكثر من تصوير الجرائم ذات الأثر المأساوي. فالأولى يمكن أن تبادر وتعمل معها الهداية؛ بينما الرسوم الأخرى تولد الخوف، والخوف لا يشفي من الأثرة، بل يُفاقمها. نحن نعتقد أن رسالة الفن هي رسالة شعور وحب، وأن على رواية اليوم أن تحمل محلَّ حكمة أزمنة الساذجين وحشوهم، وأنَّ للفنان مهمةً أوسع وأكثر شجاعة من تلك التي تقترح بعض مقاييس الحذر والتوفيق لتخفيف الرعب المستوحى من رسومه. يُسْتَحْسَن أن يكون هدفه قائماً على جعل الآخرين يُجِبُّونَ موضوعات اهتمامه، ولن أُوَبِّخه إذا هو جملها قليلاً عند السلزوم. فالفن ليس دراسةً للواقع الإيجابي، بل هو بحثٌ عن الحقيقة المثلى^(١)، ورواية "وکیل" ویک فیلد^(٢) "أكثر فائدةً وسلاماً للنفس من روايتي "الفلاح الفاسد"^(٣) و "العلاقات الخطيرة"^(٤) "

(١) كانت جورج صالد تُنادي بهذه النظرية في مرحلة معينة من مراحل تطوُّر فنِّها الروائي.

(٢) رواية تعليمية للكاتب «ر. ثولد سميت» (١٧٢٨ - ١٧٧٤)، كتبها سنة ١٧٦٦.

(٣) رواية للكاتب الفرنسي «ريستيف دولابروتون» (١٧٤٣ - ١٨٠٦).

(٤) رواية للكاتب الإسباني «خوديرلوس دولاكلوس» (١٧٤١ - ١٨٠٣) تجتمع الروايات في التصعيد الفج للفساد القرن الثامن عشر، مما يُناقض المثالية الأخلاقية لقولد سميت، ويُخَدِّشُ حُسْمَةَ جورج صالد.

أيها القارئ، سمعني على هذه الخواطر، وتفضل بقبولها على أنها طريقة
في التقديم. ولن يكون أي شيء منها في الأقصوصة التي سأحكيها لك، والتي
ستكون قصيرة وبسيطة إلى حد أنني بحاجة إلى الاعتذار عن ذلك سلفاً ناطقةً
لك بأفكاري حول القصص المربعة.

لقد انسُقت وراء هذا الحشو بسبب فلاح. فالقصة التي كنت أنوي أن
أسردها لك هي، بالتحديد، قصة فلاح، وأسردها على الفور.

الفصل الثاني

الفَلَاخَة

فرغتُ للتوّ من النظر الطويل المترافق مع حزن عميق إلى فلاّح "هولباين"، وكنت أُنزّه في الريف، حاملةً بحياة الحقول، ومصرير المزارعين. إنه لمن دواعي الحزن، دون شك، أن يبدّد الفلاح قواه وأيام حياته في شقّ صدر هذه الأرض الغيورة، ويقتلع كنوز خصوبتها لتكون قطعة خبز سوداء^(١) وضخمة للغاية هي، في آخر النهار، التعويض اليتيم، والكسب الوحيد لعناء قاسٍ بما لا يُحَدُّ. بينما هذه الثروات التي يغطيها السراب، وهذا الحصاد، وهذه الثمار، وهذه الحيوانات المتغطرة التي تسمن بين الأعشاب الطويلة، هي ملك لبعض الناس، وأدوات لتوليد التعب والعبودية لأكثر عدد من الفقراء.

(١) كان خبزُ الخدم والمُعامل الزراعيين المياومين يجري نسبةً عالية من النخالة ولم يكن الفقراء يستعملون طحين القمح لأن كلفته في العام تبلغ ضعف ما يحصلون عليه من أجور.

لا يرى في الحقول الذهبية، والمراعي الخلابة، والحيوانات الجميلة، سوى حقائب محشوة بالنقود لن يكون نصيبه منها إلا ضئيلاً لا يسدّ الرّمق، ومع ذلك، يجب أن تمتلئ هذه الحقائب البهينة، كلّ سنة، لإرضاء المعلم، ولدفع حقّ الحياة الفقيرة البائسة في حقله.

وإلى ذلك، الطبيعة فتية دائماً، جميلة وسخية. تسكب الشعر والجمال على الكائنات كلّها، وعلى النباتات التي نتركها تنمو فيها بالأمل. إنها تملك سرّ السعادة، ولم يعرف أحد كيف ينتزعه منها. إن أسعد الناس هو من يمتلك علم شغله، ويعمل يديه، غارقاً السعادة والحرية من تدريب قوّته الخلاقة، وهو من يتوقّر له الوقت ليعيش بقلبه وب عقله، وليدرك إبداعه، ويحبّ إبداع الله. ويعيش الفنان لحظات سعادة مشابهة في تأمل جماليات الطبيعة، وإعادة صياغتها. لكنّ الفنان ذا القلب الرحيم والإنساني سيضطرب وهو في أوج سعادته حين يرى بؤس البشر الذين يقيمون في هذه الجنة الأرضية. فالسعادة الحقيقية ستكون هنالك حيث يعمل العقل والقلب واليدان بتواؤم تحت عين الرعاية الإلهية (١)، عندئذ قد يوجد انسجام مقلّس بين سخاء الله وحبور النفس البشرية. وحينئذ، يمكن لرسم الرموز أن يضع مكان الموت الفظيع لفلاح يُرثي له، وهو يمشي بين خطوط الفلاحة (١) وكرباحه بيده، ملاكاً متألقاً يندر على جانبيه القمح المبارك. عمل يديه فوق خط الفلاحة (الطري) الذي يتصاعد منه البخار.

إنّ إنسان الفراغ* ، بوجه عام ، لا يحب أشياءه لذاتها: لا الحقول، ولا المراعي، ولا مشاهدة الطبيعة، ولا الحيوانات الجميلة التي يجب أن تتحوّل إلى قطع من الذهب ليستخدمها، إنّما إنسان الفراغ هذا يأتي لبحث عن قليل من الهواء النقيّ والصحة في مقرّه الريفي، ثم يعود إلى المدن الكبرى ليُبذّر جهود مُراعيّه.

وَرَجُلُ الْعَمَلِ** يظلُّ، من جانبه، محصوراً، متألّماً، شديد الخوف من المستقبل إلى درجة أنه لا يعود يشعر بجمال الحقول، وسحر الحياة الريفية. فهو لا يرى في الحقول الذهبية، والمراعي الخلّابة، والحيوانات الجميلة، سوى حقائب محشوّّة بالنقود لن يكون نصيبه منها إلا ضئيلاً لا يسدّ الرّمق، ومع ذلك، يجب أن تمتلئ هذه الحقائب اللعينة، كلّ سنة، لإرضاء المعلم، ولدفع حقّ الحياة الفقيرة البائسة في حقله.

وإلى ذلك، الطبيعة فتية دائماً، جميلة وسخية. تسكب الشعر والجمال على الكائنات كلّها، وعلى النباتات التي نتركها تنمو فيها بالأمل، إنها تملك سرّ السعادة، ولم يعرف أحد كيف ينتزعه منها، إن أسعد الناس هو من يمتلك علماً شُعْلياً، ويعمل بيديه، غارقاً السعادة والحرية من تدريب قوّته الخلّاقة، وهو من يتوفّر له الوقت ليُعيّش بقلبه وبعقله، وليُدرك إبداعه، ويُحبّ إبداع الله.

* L' Homme de loisir : تقصد « الإقطاعي ».

** L' Homme de travail : تقصد « الفلاح ».

ويعيش الفنان لحظات سعادة مشابهة في تأمل جماليات الطبيعة، وإعادة صياغتها. لكنّ الفنان ذا القلب الرحيم والإنساني سيضطرب وهو في أوج سعادته حين يرى بؤس البشر الذين يقيمون في هذه الجنة الأرضية. فالسعادة الحقيقية ستكون هنالك حيث يعمل العقل والقلب واليدان بتواؤم تحت عين الرعاية الإلهية^(١)، عندئذ قد يوجد انسجام مقدس بين سخاء الله وحبور النفس البشرية. وحينئذ، يمكن لرسم الرموز أن يضع مكان الموت الفظيع لفلاح يُرثى له، وهو يمشي بين خطوط الفلاحة^(٢) وكرباحه بيده، ملاكاً متألقاً يذر على جانبيه القمح المبارك على يديه فوق خط الفلاحة (الطري) الذي يتصاعد منه البخار.

وليس الحلم بوجود هادئ، وحرّ، وشاعري، وكادح، وبسيط بالنسبة لإنسان الحقول، صعباً على الإدراك إلى درجة يجب عندها أن نَعُوْله وسط الأوهام. وما قولة "فرجيل" الخزينة: "ما أسعد إنسان الحقول لو كان يعرف سعادته"^(٣)، إلا عزاء، كالعزاءات الأخرى. إلا أنها تنبؤ أيضاً. فسوف يأتي

(١) ما سبق من أفكار جورج صائد ومشاعرها الإنسانية يوجب الإشارة إلى أن العناية الإلهية بمفهومها لا تتطابق مع العناية الإلهية بالمفهوم الكاثوليكي. فالله عندها هو إله دين «طبيعي» مووروث من القرن الثامن عشر. وهذا ما يتّماه «جمال الدين الأفغاني» بملذهب الدهريين «التيشرية» وردّ على أصحابه في «رسالة الردّ على الدهريين».

(٢) يأخذ «خطّ الفلاحة» دور شخصية هامة في روايات جورج صائد.

(٣) أنظر: فرجيل، الجورجيات، ج ٢، ص ٤٥٨ - ٤٥٩ (بالفرنسية).

يوم يستطيع الفلاح فيه أن يكون فتناً كذلك، إن لم يكن من أجل التعبير عن الجمال (وهذا أمر قليل الأهمية أصلاً)، فعلى الأقل من أجل الإحساس به .

أَوْ يُعْتَقَدُ أَنَّ هَذَا الْحَدْسَ الْخَفِيِّ لِلشَّعْرِ لَيْسَ موجوداً فِيهِ سَلْفاً فِي طُور غَرِيزِي، وَهُوَ اجْسَ غَائِمَةٌ؟ عِنْدَ هَؤُلَاءِ الَّذِينَ يَحْمِيهِمْ مِنَ الْآنَ وَصَاعِداً الْقَلِيلِ مِنَ الرِّفَاقِ، وَالَّذِينَ لَا يَخْنُقُ طَغْيَانِ الْبُؤْسِ كَامِلَ تَطَوُّرِهِمُ الْأَخْلَاقِي وَالْعَقْلِي، تَكُونُ السَّعَادَةُ الصَّافِيَّةُ، الْمَحْسُوسَةُ، وَالْمَقْوَمَةُ، فِي حَالِهَا الْبِدَائِيَّةِ (١) ؛ وَمِنْ جِهَةِ أُخْرَى، إِذَا عَلَتْ أَصْوَاتُ الشَّعْرَاءِ مِنْ قَلْبِ الْأَلَمِ وَالضُّغْنَى، فَلِمَاذَا سَيُقَالُ إِنَّ عَمَلَ الْيَدَيْنِ غَرِيبٌ عَنْ وَظَائِفِ الرُّوحِ؟ لَا رَيْبَ فِي أَنَّ هَذَا الْاِسْتِبْعَادَ نَتِيجَةُ عَمَلٍ زَائِدٍ وَتَعَاسَةٍ عَمِيقَةٍ. فَلَنَكْفُفْ عَنِ الْقَوْلِ إِنَّ الْإِنْسَانَ حِينَمَا يَعْمَلُ بِاعْتِدَالٍ وَإِفَادَةٍ، لَنْ يَعُودَ لَدَيْهِ سِوَى رَدَى الْعَمَالِ وَالشَّعْرَاءِ. فَمَنْ يَنْهَلُ اللَّذَائِدَ النَّبِيلَةَ مِنَ الْإِحْسَاسِ بِالشَّعْرِ إِنْ هُوَ إِلَّا شَاعِرٌ حَقِيقِي، حَتَّى لَوْ لَمْ يَنْظِلِمُ بَيْتاً وَاحِداً فِي حَيَاتِهِ.

كَانَتْ أَفْكَارِي قَدْ سَلَكَتْ هَذِهِ السَّبِيلَ، وَلَمْ أَكُنْ أَلاحِظُ أَنَّ الْمُؤَثَّرَاتِ الْخَارِجِيَّةَ تَدْعُمُ فِي دَاخِلِي هَذِهِ الثِّقَّةَ بِتَرْبِيَةِ الْإِنْسَانِ. كُنْتُ أَعْمَشِي عَلَى تَحْمِيقِ حَقْلِ يَحْضُرُهُ الْفَلَاحُونَ لِمَوْسَمِ الزَّرْعِ الْقَادِمِ. كَانَ الْأَفْقُ وَاسِعاً كَأَنَّكَ لَوْحَةٌ

(١) تَعَالَى جُورْجُ صَالِدُ الْأَفْكَارِ ذَانِهَا فِي مَقْدَمَةِ رِوَايَتِهَا «لِرَاسُوا لُو شَامِي» حَيْثُ تَصَوَّرَ «نَفْسَ فَلَاحٍ مُتَلَيْنٍ، وَحَكِيمٍ يَعْمَلُ وَيَكْسِبُ مِنْ تَعْيِهِ، وَيَسْعَدُ بِحَيَاتِهِ الْخَاصَّةِ، دُونَ الشُّعُورِ بِالْعُزُزِ، وَالرَّغْبَةِ فِي شَيْءٍ، وَدُونَ امْتِلَاقِ أَيْةٍ وَسِيلَةٍ يَتَّبِعُ مِنْ خِلَالِهَا عَنْ دَوَاخِلِهِ».

"هولباين"، والمنظر رحيباً يوطّر بخطوط كبرى من الخضرة المحمرة قليلاً باقتراب الخريف هذه الأرض الفسيحة ذات اللون البني الغامق حيث تركت أمطاراً حديثة في كلّ خطّ فِلاحة خطوطاً من الماء تجعلها أشعة الشمس لامعة كأسلاك رقيقة من الفضّة. كان النهار دافئاً وصافياً، والأرض التي شقّتها سكّنة المحراث بطراوة، تفوح ببخار خفيف. وفي أقصى الحقل رجلٌ عجوزٌ ظهره عريض ووجهه قاس يذكّر بمجوز "هولباين"، لكنّ ثيابه لاتنمّ عن البؤس، يدفع بحراثته القديم، يجرّه ثوران هادئان لونهما أصفر شاحب، إنهما سيّدا المروج الحقيقيان، قامتهما عالية، هزيلان قليلاً، قرونهما طويلة ومقطوعة، وقد خلق الاعتياد الطويل من هذين العاملين العجوزين أخوين، كما ندعوهما في أيامنا، إذا ما حُرّم أحدهما من الآخر، يرفض العمل مع رفيق جديد، ويترك نفسه يموت من الكآبة.^(١) أما الذين لا يعرفون الرّيف فيتهمون صداقة الثور مع رفيقه في الكدّ بأنّها خرافة. فلبّاتوا ويروا في زاوية الاسطبل حيواناً بائساً هزيلاً، خائر القوى، يضرب بذيله المضطرب خاضعته الجرّادوين، يزفر بدّعر واحتقار على ما يوضع له من غذاء، تحمّل عيناه دوماً في الباب وهو يضرب بقدميه المطروح الفارغ على جانبيه، يشمشم الأنيار والسلاسل التي حملها رفيقه، ويناديه دون توقّف بخوار يُثير الشفقة. ساعتئذ سيقول راعي الأبقار: "هذا فرد ضائع

(١) يَرِدُ ذلك في جورجيات فرجيل ج ٣ ص ٥١٧ - ٥١٨ (بالفرنسية): سيكند الفلاح يحزن عميق الثور الفتي الكتيب لموت أخيه.

من الأبقار، مات أخوه، لم يعد يعمل، وعلينا أن نسمّنه للذبح، إلا أنه لا يريد.
أن يأكل، وعمّا قريب سيموت من الجوع."

كان الفلاح المعجوز يعمل ببطء، صامتاً، لا يبذل جهوداً ضائعة، ولم تكن
دوابه بأسرع منه، إنما بفضل استمرارية العمل البعيد عن الشرود، وبفضل بآل
قوى شديدة ومتواترة، كان خطّ فلاحته يُشقّ بسرعة خطّ ولده الذي كان
على مقربةٍ منه، يقود أربعة ثيران أقلّ ضخامة، في قطعة أرض أكثر تصخراً
وحجارة.

ومالفت نظري فيما بعد كان حقاً مشهداً جميلاً، وموضوعاً نبيلاً للوحة
رسم (١). ففي الطرف الآخر للسّهل المفلوح، كان رجلٌ شاب حسن الطلعة
يقود عيراً عجيباً: أربعة أزواج من ثيران فتية داكنة مشوبة بسواد أصهب
يتوهج بالحمرة، برؤوس قصيرة بمعدّة لاتزال تُشعر بالثور الوحشي، وعيون
غاضبة، وحركات عاصفة، وعمل مهيج للأعصاب ومرهق للثور المتألم من
النّير والمّسّاس ولا ينصاع إلا بالارتجاف الغاضب تحت هيمنة تُقرض عليه من
جديد. وهذا ما يدعى: الأبقار الحديثة الكُدن. كان على الرجل الذي يقودها

(١) كان «موريس» ابن الكاتبة تلميذاً للرّسام الانطباعي الفرنسي «دولاكروا» وكانت أمة تحبّ أن
يتخصّص في فن الرسم. وفي عام ١٨٤٩ عرضت «روزا بونور» لموريس لوحة: «للاحة على الطريقة
البقرية». التي يُذكر موضوعها بالمشهد الموصوف هنا.

أن يحرق زاوية تُركت حديثاً للرعي، مملوءة بالجدوع القديمة، إنه عمل بطل رياضي لاتكاد طاقته، وشبابه، وثيرانه الثمانية الحديثة الترويض تكفيه للقيام به.

وثمة طفل في السادسة من عمره، جميل كمالك، يجعله جلد الخروف الذي يغطي كتفيه فوق السترة مشابهاً للقديس يوحنا المعمدان في رسوم عصر النهضة، كان يمشي بين الخطوط بموازة المحراث، ينخر خواصر الثيران بقضيب طويل وخفيف في نهايته إبرة مطعمة بقليل من الفولاذ. كانت الثيران المختالة ترتعش تحت يد الطفل الصغيرة، باعثةً من الأنيار والأطواق المربوطة على جباهها صريراً حاداً، وتاركةً على مقبض المحراث هزات عنيفة. وعندما كان جذر من الجدور يُوقف سكة المحراث، يصرخ الفلاح بصوت قوي، منادياً كلَّ ثور باسمه، ليهدئهما وليس ليشيرهما. لأن الثيران المتضايقة من هذه المقاومة المفاجئة كانت تقفز حافرةً الأرض بأقدامها العريضة المظلمة، وربما كانت ستلقي بنفسها جانباً، وتحمل المحراث عبر الحقول لولا أن الفلاح الشاب كان يضبط الثيران الأربعة الأولى بالصوت والمسّاس، بينما كان الطفل يقود الأربعة الأخرى. وبصرخ المسكين، هو الآخر بصوت يُريده مرعباً لكنه يبقى ناعماً كوجهه الملائكي. ذلك كله كان جميلاً جمالاً قوياً أو جمالاً لطيفاً: المنظر الطبيعي، الرجل، والطفل، والثيران تحت الثير؛ وعلى الرغم من هذا الصراع الشديد الذي قهرت الأرض فيه كان هناك شعور من عذوبة وهذوء عميق يخلق فوق الأشياء كلها. ولما انزاحت العقبة، وأخذت الثيران مسارها المتوازن الرزين، كان الفلاح الذي لم يتصنع العنف إلا للتمرّن على الدقة وتصريف

النشاط، يتخذ على الفور صفاء الأرواح البسيطة، ويُلقى نظرة غبطة أبوية على طفله الذي كان يستدير ليبتمس له. وكان الصوت الرجولي لأب الأسرة الشاب هذا، يُدندن الأغنية السامية الحزينة التي نقلتها عادات البلاد القديمة ليس إلى الفلاحين جميعهم دون تمييز، بل إلى أكثرهم تحملاً في فن إثارة حماسة ثيران العمل وسنّها. إن هذه الأغنية التي يُحتمل أن أصلها كان يعتبر مقدساً، وأنه عُرِيت إليها قديماً تأثيرات سحرية غامضة، منتشرة الآن، وتملك فضيلة محاورة جسارة هذه الثيران، وتهدة استيائها، وقلب ضيقها من عنائها الطويل إلى سكينه. فليس يكفي أن نعرف معرفة تامة كيف نقودها لشق خطوط مستقيمة تماماً، أو أن نخفف تعبها برفع السكة أو بتعميقها في الأرض: فلن نكون فلاحين حقيقيين إذا لم نعرف كيف نغني للثيران؛ فالغناء هذا هو فن قائم بذاته، يتطلب ذوقاً ووسائل خاصة.

والحق أن هذه الأغنية ليست إلا ضرباً من التلحين يُقطع ويُستأنف إرادياً. شكلها غير المنتظم، ونغماتها الخطأ بحسب قواعد فن الموسيقى، يجعلها غير قابلة للترجمة^(١). لكنها ليست أقل شأنًا من أغنية جميلة، متطابقة حقاً مع طبيعة العمل الذي يرافقها، ومع مشية الثور، ومع هدوء الأمكنة الفلاحية، ومع بساطة الفلاحين الذين ينشدونه، حيث تعجز أية عبقرية غريبة عن العمل في الأرض، عن إبداعها، ويعجز أي مغن آخر غير فلاح هذه المنطقة الخبير أن

(١) أي لا يمكن أن تكتب في رموز موسيقية، وقد جرب «شوبان» فعلاً أن يكتب الحان بعض منها.

تُعيدُ غناءها. فعندما لا يكون في الريف خلال فصول السنة عمل وحركة إلا الفلاحة، تتساعد هذه الأغنية العذبة المؤثرة كصوت النسيم التي تخلع عليها نغمتها الخاصة شَبْهاً أكيداً به. إذ تعلق النغمة النهائية الثابتة أو المهترئة لكل جملة، برُيق لحنٍ منحرف باطراد. هذا غريب، لكن سحره لا يوصف، وإذا ما اعتدنا سماعه، لا تتصور أن أي غناء آخر يمكن أن يتساعد في هذه الساعات، وتلك الأمكنة دون أن يشوّه انسجام الطبيعة.

إذا صادف أنني كنت أرى لوحة تتناقض مع لوحة "هولباين"، مع أن المشهد واحد. إنما بدل العجوز الحزين، يوجد رجل شاب معافى، وبدل كَدْنِ الأحصنة الضامرة المنهوك، زوجٌ رباعيٌّ من ثيران ضخمة تشتعل حيوية، وفي مكان الموت طفلٌ رائع، وبدل صورة اليأس، وفكرة التهديم، هناك مشهد من طلاقة، وفكر وسعادة.

حيث عادت القصيدة الرباعية الفرنسية "بعرق وجهك... الخ"، ومقطوعة فُرجيل "ما أسعد إنسان الحقول..."، إلى خاطري، وعلى مرأى هذا الزوج الجميل للغاية، الرجل والطفل، يقومان في ظروف شاعرية وبكثير من اللطف المتحد مع القوة، بعملٍ عامر بالعظمة والسمو، شعرتُ بِشَفَقَةٍ عميقة ممزوجة باحترام غير إرادي. ما أسعد الفلاح! أجل، قد أكون سعيدة سعادته دون شك، لو أن ذراعي غداً ضخماً على، الفسور، وصدري قوياً، يتمكنان بذلك من إخصاب الطبيعة، والغناء لها دون أن تتوقف عيناى عن الرؤية،

ودماغي عن استيعاب تناسق الألوان والأصوات، ورقّة النغمات وانسياب الخطوط، وبكلمة واحدة عن استيعاب جمال الأشياء الخفيّة ودون أن يكفّ قلبي خاصّة عن أن يكون على علاقة مع الشعور الإلهي الذي ساد الإبداع الخالد الجليل.

لكن، وأسفاه! لم يدرك هذا الرجل أبداً سرّ الجمال، ولن يفهمه هذا الطفل إطلاقاً! يُخَمِّني الله من الاعتقاد أنّهما ليسا أرقى من الحيوانات التي يقودانها، وأنهما لا يملكان، في بعض الأحيان، ضرباً من الانتشاء الملطّف لتعبيهما، والمهدىء لهما. فأننا أرى على جبهتيهما النيلتين خاتم الربّ، لأنهما ولدا ملكين للأرض أفضل بكثير من الذين يملكونها لأنهم اشتروها. والدليل على إحساسهما بذلك، أن ابتعادهما عنها لا يحصل طواعية ودونما قهر، فهما يحبّان هذا التراب المرويّ بترقيهما، والفلاح الحقيقي يموت في الجنديّة شوقاً وهو بعيد عن الحقل الذي رآه يولد. إنّما ينقص هذا الإنسان نصيب من المتّع التي أمثلُكُها، وهي متّع غير مادية ربّما كانت من حقّه هو، عامل المعبد الواسع (الطبيعة) حيث تبلغ السماء من الاتساع ما يجعلها تلامسه. تنقصه معرفة شعوره. ذلك أن أولئك الذين حكموا عليه بالعبودية منذ كان في بطن أمه، استطاعوا أن يجرّدوه من تفكيره، وإن لم يستطيعوا تجريده من أحلامه.

حسناً الفلاح كما هو، بنواقصه، وبكونه محكوماً بطفولة أبدية، لا يزال أجمل من ذلك الذي خنقَ العلمُ شعوره. فلا تتعالوا عليه، أنتم أيّها المعتقدون

بامتلاككم لحق شرعي غير قابل للتقادم، في قيادته، لأن الخطيئة القاتلة التي تتمرغون فيها تدلّ على أن عقْلَكُمْ قتل قَلْبَكُمْ، وعلى أنكم الأكثر نقصاً، والأكثر عمىً من بين الناس... فأنا أحب أيضاً هذه البساطة في روحه أكثر من الأنوار الزائفة في أرواحكم، ولوقُضَ لي أن أكتب قصة حياته، فساكون أكثر اغتباطاً بكشف جوانبها العذبة المؤثرة من أن أرسِم ماتستحقونه من دناءة يمكن أن يجعل بها اردراء قواعدكم الاجتماعية ومشقاتها.

كنت أعرف هذا الرجل الشاب، وهذا الطفل الرئع، وأعرف قصتهما لأن لهما قصّة، ولكل إنسان قصّته، وأي فرد يمكن أن يشغل رواية بحياته الخاصّة إذا كان قد فهمها... وجرمان، مع أنه مزارع وفلاح بسيط، حسب حساب واجباته وعواطفه. وحكاها لي بسداجة، ووضوح، وأصغيت إليه باهتمام. ولما رأيته يحرث لوقت طويل نسيباً، قلت لنفسى: لماذا لا تكون قصّته مكتوبة، حتى لو كانت قصة بسيطة بساطة خط الفلاحة الذي كان يرسمه بحجراته، ومستقيمة استقامته، وقليلة التزيين كَقِلَّة تزيينه.

في السنة القادمة سيصير هذا الخط مملوءاً، يغطيه خط فلاحه جديد. وهكذا يتطلع أثر أغلب الناس ويختفي من حقل الإنسانية قليل من التراب يحوه، وتقال الخطوط التي حفرناها بعضها بجانب بعضها الآخر كما القبور في المقبرة. وخط الفلاح ألا يساوي خط العدم، الذي له اسم رغم ذلك، اسم سيقى، إذا خلق قليلاً من الضجة في العالم بتفرّده، أو بعثية آياً كانت؟...

حسنًا إذا أمكن، لنتزع من عدمية النسيان خطّ فلاحه "جرمان" الفلاح
البارع. فهو لن يعرف عنه شيئاً، ومن النادر أن يشغله الأمر، ولكنني سأمتنع
بمحاولة الكتابة عنه.

الفصل الثالث

الأب موريس

قال له حَمُوَّة ذات يوم: "ياجرمان عليك أن تقتنع، مع ذلك، بالزواج ثانيةً. فعَمَّا قريب تمضي ستان على تَرْمُلك من ابنتي، وعمر ابنك البكر سبع سنوات. وأنت توشك على الثلاثين يا ولدي، وأنت تعلم أن الرجل الذي يتجاوز هذا السنَّ في بلادنا يعتبر عجوزاً على الزواج. عندك ثلاثة أطفال من أحسن ما يكون، وحتى الآن لم يزعجوننا. فزوجتي وكنتي اعتننا بهم وسعَّهْما، وأحبَّتهْما كما يجب. ها هو "بيير" الصغير قد شبَّ تقريباً، إنه يحبُّ الثيران برفق؛ وله من الحكمة ما يجعله يرعى الحيوانات في المُرُج، ومن القوَّة ما يساعده على قيادة الأحصنة إلى المنهل.

إذاً ليس هذا من يُلْقِنَا؛ إنما الإثنين الآخران، اللذان نُحِبُّهُما رغم ذلك، الله يشهد، واللذان يَسْبِيَان لنا هذه السنة كثيراً من الهمِّ. كُنَّتي على وشك أن تلِدَ، وعلى ذراعَيْها أيضاً طفل صغير. وعندما سيأتي الطفل الذي تنتظره، لن

نكون قادرة على الانشغال بصغيرتك "سولانج" (١)، وبابنك "سيلفان" خاصة، الذي لم يبلغ الرابعة من عمره، ولا يهدأ إلا نادراً لا في النهار ولا في الليل. إنه كتلة من دم نشيط مثلك: سيكون عاملاً ممتازاً، لكنه طفل فظيع، زوجتي لم تعد تستطيع الجري وراءه بسرعة كافية للإمساك به وهو ينطلق من جانب الخندق، أو عندما يلقي بنفسه بين أقدام الدواب. ومع قدوم الطفل الذي ستلده كنتي، سيُلقي حِمْلُ أخيه السابق على عاتق زوجتي خلال سنة على الأقل. إذاً، أولادك سيقلقونا، وسيحملونا فوق طاقتنا. ونحن لانهب أن نرى أطفالاً لا يعتنى بهم جيداً؛ وعندما نفكر بالحوادث التي يمكن أن تحصل لهم، بسبب نقص رعايتهم، لا يرتاح بالنا. تلزمك إذا امرأة أخرى، وتلزمي كنة ثانية. فكر بذلك يا ولدي. لقد نبهتك عدّة مرات سابقاً، والزمن يمضي، والسنين لا تنتظرك أبداً. أنت مدين لأطفالك ولنا نحن الذين نتمنى أن يسير كل شيء في المنزل على مايرام، وأن نزوّجك ثانية في أقرب وقت

- أجاب الصهر، حسناً ياعمّي، ينبغي إسعادكم إذا كنتم تريدون ذلك كلياً. لكني لا أريد أن أخفي عنكم أن هذا سيسبب لي الكثير من الضنى، وأنه لم يعد لي من أمل في هذه الحياة إلا بإغراق نفسي. فالمرء يعرف من يخسر، ولا يعرف من يلاقي. لقد كانت لديّ زوجة طيّبة، وحبيبة، ولطيفة، وجسورة، محبة لأهلها ولزوجها، وأطفالها، وفيّة للعمل، والحقول خبيرة في شغل البيت،

(١) كانت جورج صالاد قد نمت ايّتها «سولانج». الظر: المقدمة.

مستقيمة في عملها. وفي النهاية كانت ماهرة في كل شيء، ولما زوّجني إياها، وتزوّجتها، لم نضع في شروط اتفاقنا أنني سأنساها إذا ما نكّبتُ بفقدانها.

ما تقوله هنا دليل قلبك الطيّب يا جرمان؛ استأنف الأب موريس: أعرف أنك أحببت ابنتي، ووفّرت لها السعادة، ولو أنك استطعت إرضاء الموت ليأخذك بديلاً منها، كانت "كاترين" الآن على قيد الحياة، وأنت في المقبرة. كانت تستحق حبك إلى هذا الحد، وإذا كنت لاتعزّي عنها بشيء، فنحن كذلك أيضاً. لكني لا أطلب منك نسيانها. إنما أراد الله أن تفارقنا، ولا يمضي يوم دون أن نعلمها بصلواتنا، وأفكارنا، وأقوالنا، أننا نحترم ذكراها، ويلفنا الأسى على رحيلها. غير أنها لو كان لها أن تكلمك من العالم الآخر وتعبّر لك عن إرادتها، لطلبت إليك البحث عن ألم لصغارها اليتامى. إذا المسألة مسألة إيجاد امرأة جديرة بأن تحل محلّها. ولن يكون ذلك سهلاً، لكنه ليس مستحيلاً، وعندما ستجدها لك ستحبّها كما كنت تحبّ ابنتي، لأنك رجل شريف، وستكون ممتناً منها إذا أسدت إلينا خدمة محبة أطفالك.

-خيراً، يا أب موريس، يقول "جرمان"، سأنقذ ماتريدون كما فعلت

دائماً. (١)

(١) كانت إعميد الأسيرة في وسط فرنسا سلطنة قوية جداً، لأنه يحلّ ضريباً من البطيركية: آراؤه مسموعة، وإرادته سائدة.

- هذا إنصاف تستحقّه يا ولدي طالما أنك أصغيت للملاطفة عميد أسرتك، ولتصائحهم فلنفكّر معاً في اختيار زوجتك الجديد. أولاً لستُ مع زواجك من امرأة شابة، فليست هي من تلزمك. البنت الشابة طائشة، وتربية ثلاثة أطفال عبء كبير، وعندما يكونون من أمّ أخرى خاصة، مما يتطلّب نفساً هادئة، وحكيمة، ورقيقة للغاية، وميالة جداً للعمل. إذا لم تكن زوجتك في مثل سنّك فلن يكون لديها ما يكفي من العقل لتقبل واجباً كهذا. ستجدك مُعمرأ، وستجد أطفالك صغيراً جداً. سوف تندب نفسها، وأطفالك سيعانون الأمرين.

- هذا بالضبط ما يقلقني، يقول جرمان، فماذا لو انتهى هؤلاء الصغار المساكين إلى المعاملة السيئة، والزجر والضرب؟

-لاسمع الله! أجناب الشيخ، فالتساء الشريرات في بلادنا أقلّ بكثير من الخيّرات، ومن الجنون ألا يضع المرء يده على المرأة المناسبة.

-هذا صحيح يا أبي: في قريتنا بنات طيّبات. فيها "لوزي"، و "سيلفين" و"كلودي" و"مارغريت"، ومن ترغبون بها في النهاية.

- مهلاً، مهلاً، ياولدي، جملة البنات اللواتي ذكرتنّ إما صغيرات جداً، وإما فقيرات جداً... وإما جميلات للغاية؛ وينبغي التفكير بهذا أيضاً في النهاية ياولدي. فالمرأة الجميلة ليست دائماً حسنة السلوك كما مرأة أخرى غير جميلة.

- تريدون إذاً أن أتزوج امرأة قبيحة؟ قال جرمان مع قليل من الاضطراب.

- ليست قبيحة تماماً؛ لأنها ستهيك أطفالاً، وليس أبعث على الحزن من أن يكون للإنسان أطفال قبيحون، وهزيلون معلولون. إنّ من سوف تلتصق هي زوجة ناعمة، ذات صحّة جيّدة، لاجميلة ولا بشعة.

- قال جرمان مبتسماً بشيء من الأسى: أرى من الملائم أن إيجاد المرأة التي تريدونها يوجب أن تُصنع صنعةً بحسب الطلب: ولا سيّما أنكم لا تريدونها فقيرة إطلاقاً، وأنّ الزواج من الغنّيات ليس سهلاً ولرجل أرمل خاصّةً.

- وإذا كانت هي نفسها أرملة يا جرمان؟ أرملة ليس عندها أطفال وتملك ثروة معقولة؟

- في الوقت الحاضر لا أعرف واحدة كهذه في ناحيتنا.

- ولا أنا، ولكنها موجودة في مكان آخر.

- هل في ذهنكم واحدة، يا أبي، إذا قل لي فوراً من تكون؟

الفصل الرابع

جرمان، الفلاح البارِع

"أجاب الأب موريس: نعم، في ذهني واحدة، بنت "ليونارد" أرملة رجل غاروني، تقيم في "فورش"^(١)

-قال جرمان بمخضوع وحزن تزايد شيئاً فشيئاً: أنا لأعرف المرأة ولا المكان.

-تدعى "كاترين" كفقيدتك.

(١) تبعد فورش حوالي ١٢/ كم إلى الشمال الغربي من نوهان.

-كاترين؟ سيلذ لي أن انطق بهذا الاسم: كاترين! ومع هذا، سيسبب لي ذلك الكثير من الغم إذا أنا لم أستطع أن أحبها كما أحببت الأخرى، ستذكرني بها غالباً.

-أقول لك سوف تحبها: إنها إنسانة جيدة، وسعيدة ذات قلب كبير، لم أرها منذ زمن ، عندما رأيته آخر مرة لم تكن بنتاً قبيحة، إلا أنها لم تعد شابة، فعمرها الآن اثنتان وثلاثون سنة. تنحدر من عائلة طيبة، أفرادها جادون، وتملك من الأرض ما ثمنه من ثمانية الى عشرة آلاف فرنك، ستيحبها رغبة لشترى بتمنها أراضي أخرى في المكان الذي ستقطنه، لأنها تحلم ايضاً بالزواج ثانية، وأنا أعرف، فيما لو ناسبها طبعك، أنها لن ترى وضعك رديئاً.

-إذاً لقد رتبتم ذلك كله سلفاً

-نعم، ماعدا رايكما أنت وهي، وهذا ما يجب أن يطلبه كل منكما من الآخر، بالتعارف. والد هذه السيدة قريسي من بعيد، وكان صديقاً حميماً. وأنت تعرفه جيداً، إنه الأب ليونارد؟

-نعم، رأيته يكلمكم في الأسواق، وفي السوق الأخيرة تناولتما طعام الغداء سوياً، إذاً بهذا الأمر كان يحاوركم لوقت طويل؟

دون شك، كان ينظر إليك وأنت تبيع دوابك ولاحظ أنك تلمّ بالبيع جيداً، وأنت صبيّ بهيئة حسنة، تبدو نشيطاً جبراً، ولما قلت له كلّ شيء عنك، وكيف تتصرّف معنا منذ ثماني سنوات نعيش ونعمل معاً، دون أن تكون بيننا كلمة عتبر أو غضب، وضع في رأسه أنّه سيزوجك ابنته، مما يناسبني أيضاً، وأعترف لك بذلك على هوى سمعتها الطيبة، وشرف عائلتها، والأملّك الجيدة التي أعرف قيمتها .

-يا أب موريس، أرى أنكم تعولون قليلاً على الأملاك الجيدة.

-لاشك في أنني أتمسك بها، وأنت، ألا تهمسك؟

-أتمسك إذا شئتم، لإرضائكم؛ لكنكم تعرفون أنني، من جانبي، لا يضايقي ما يعود عليّ، أو ما لا يعود من أرباحنا. وأنا أعرف الأرض، والشران، والأحصنة، والمحارث، ومواسم البذار، والدريس، وحشّ الحشيش. أما الخراف، وأشجار الكرم، والبستنة، والعوائد الصغيرة، والزراعة الناعمة فأنتم تعرفون أنها شأن ابنكم، وأنا لا أتدخل فيها كثيراً، وفيما يتعلّق بالنقود، ذاكرتي ضعيفة وأودّ لو اتخلّى عن كل شيء ولا أجادل حول نقودك ونقودي. وأخشى أن أغلط وأطلب ما ليس من حقي، وحينما لا تكون القضايا بسيطة واضحة، أضيع فيها تماماً.

-لسوء الحظ، ياولدي، وهاهو السبب الذي من أجله أرغب بأن تجدد زوجة راجحة العقل كي تحلّ محلّي بعد موتي. فأنت لم تشأ أن تفتح عينيك على حساباتنا، وقد يقرّوك ذلك إلى مضايقاتٍ في علاقتك مع ابني حينما لن أكون بينكما لأوفّق رأيكما وأحدّد لكلّ منكما نصيبه.

- بعد عمر طويل يا أب موريس، لكن لا تقلقوا مما سيحصل بعد موتكم، لن أخاصم ابنكم أبداً، فثّقني بـ "جاك" مثل ثقتي بكم تماماً، ولما كنت لا أملك أرزاقاً، وكان كلّ ما يمكن أن أجنّبه عائداً عليّ من ابتئكم، وهو مِلْكُ لأطفالنا، أستطيع أن أكون مطمئناً، وأنتم أيضاً؛ لأنه يُحبّهم كما يحبّ نفسه.

-معك حق في ذلك، يا جرمان، جاك ولد طيّب، وأخ ونيّ، ورجل يحب الحقيقة. إلا أنّ جاك قد يموت قبلك، قيل أن يشبّ أطفالك عن الطوق، والحال أن من الواجب التفكير بعدم ترك القاصرين، في عائلة من العائلات، دون كبير يرشدهم ويسوّي خلافاتهم. وإلا فإن رجال القانون سيحشرون أنفسهم بقضاياهم، يشوّشون أمرهم جميعاً، ويجعلونهم يضيّعون كلّ شيء في المحاكم. وعليه، يجب ألا نفكر بزيادة شخص جديد على عائلتنا، رجل أم امرأة، دون أن نضع في بالنا أن هذا الشخص قد يكون عليه أن يرعى تصرفات حوالي ثلاثين طفلاً، وحفيداً، وصهرًا، وكَنّة، ويدير شؤونهم... فلا أحد يعرف إلى أيّ حد تنمو العائلة وتتكاثر، وعندما تغصّ حلية النحل، ينبغي أن تفرّق نحلّاتها، وأن تفكر كلّ نخلة بحمل عسلها. وأنا حينما اتخذتكَ صهرًا لي، رغم أن ابنتي

كانت غنية وأنت فقيراً، لم أوتّبعها لأنها اختارتك. كنت أراك تعمل جيّداً، كما لو كنت أعلم أن أفضل ثروة لأهل الأرياف مثلنا، يدان كيديك وقلب طيّب كقلبك، وعندما يمتلك رجلٌ مثل هذا في عائلة ما، فهذا يكفي. أما المرأة فأمرها مختلف: عملها في البيت جيّد للمحافظة عليه، وليس جيّداً لكسب لقمة العيش. ومن جهة ثانية، في الوقت الحاضر بصفتك أباً تبحث عن زوجة، عليك التفكير بأن أطفالك الجُدد الذين لن يكون لهم نصيب من إرث زوجتك الأولى، سينتهون إلى الفاقة فيما لو مُتُّ أنت، اللهم إلا إذا كانت زوجتك، من جانبها، تملك بعض الأرزاق. ثم إنّ الأطفال الذين ستزيدهم عائلتنا سيكلّفون بعض الشيء لإطعامهم. فإذا تحمّلنا عبء ذلك بمفردنا، سنطعمهم، بالتأكيد، ودون شكوى؛ لكن كفاية الجميع ستتناقص، وسيكون للأطفال القدامى نصيبهم من الحرمان نتيجة ذلك. فحينما تتكاثر العائلات زيادة على الحدود، دون أن يزداد دخلها بما يعادل زيادة أفرادها، يأتي الفقر، مهما كنا شجعاناً في تصريف أمورنا. هذه هي ملاحظاتي يا جرمان، رُزّها، وحاول أن تنال إعجاب الأرملة غيران؛ لأن سلوكها الحسن، وأموالها سيحملان إلينا العون في الوقت الحاضر، والطمأنينة في المستقبل.

-سمعا، أيها الأب، سأحاول أن أرضيها، وأن ترضيني.

-لذلك، يجب أن تراها، وتسعى للبحث عنها.

- أفي قريتها؟ في فورش، إنها بعيدة من هنا أليس كذلك (١) ؟ ونحن
لا نملك الوقت للتجوال خلال هذا الفصل.

- عندما يتعلق الأمر بزواج عن حب، فعلى المرء أن يتوقع تضییع الوقت،
لكن عندما يكون الزواج زواج عقل بين شخصین متحررين من النزوات،
ويعرفان ماذا يريدان، فهذا أمر مضمون سلفاً، غداً يوم السبت، ستقصر نهار
الفلاحة قليلاً، وستذهب بعد حوالي ساعتين من الغداء، وستكون في
"فورش" (٢) مع حلول الليل، القمر بذر هذه الأيام، والدروب سالكة واضحة،
وليس أمامك أكثر من ثلاثة فراسخ بمقاييس بلدنا. وفورش قرية من قصر
"مانيه". ثم إنك سترحل على الفرس.

- أجب أن أذهب ماشياً في هذا الطقس المنعش.

- أجل ! ولكن الفرس جميلة، وسيكون للعريس الذي يمتطيها مظهر
أفضل. سترتدي لباسك الجديد، وستحمل طريدة طرية إلى الأب "ليونارد".
ستصل إليه من طرني، وتحدث معه، وتمضي نهار الأحد مع ابنته، وصباح
الاثنين تعود بجواب (نعم) أو (لا).

(١) لم يكن الفلاح الفرنسي في القرن التاسع عشر يحب السفر، أو التقل خارج قريته وما يجاورها.

(٢) قصر Magnier، يبعد عن «فورش» ١٥٠٠ م على الضفة اليمنى للأندر.

-سَمْعاً وِطَاعَةً، أَجَابَ جَرْمَانُ بِهَدْوٍ، وَمَعَ ذَلِكَ لَمْ يَكُنْ مُطْمَئِئِناً تَمَاماً.

عاشَ جَرْمَانُ دَائِماً بِحِكْمَةٍ. كَمَا يَعِيشُ الْفَلَاحُونَ الْكَادِحُونَ. وَلَمَّا تَزَوَّجَ فِي سَنِ الْعَشْرِينَ، لَمْ يَعِشْ سِوَى امْرَأَةٍ وَاحِدَةٍ فِي حَيَاتِهِ، وَمِنْذَ غَدَا أَرْمَلٍ، لَمْ يَمَازِجْ امْرَأَةً أُخْرَى لَا تَتَصَرَّفُ مَتَهَوِّراً، وَلَا بِرُوحٍ مِنَ الدَّعَابَةِ. لَقَدْ حَمَلَ فِي قَلْبِهِ بِوَفَاءٍ أَسْفَافاً عَمِيقاً، وَلَمْ يُلْقَ بِتَبِعَاتِهِ عَلَى كَاهِلِ خَمْرِهِ دُونَ خَوْفٍ وَحُزْنٍ؛ غَيْرَ أَنَّ الْخَمْرَ كَانَ يَرعى الْعَائِلَةَ دَوْماً بِرُويَّةٍ وَحِكْمَةٍ، وَجَرْمَانُ الَّذِي وَهَبَ نَفْسَهُ كُلَّهَا لِلْعَمَلِ الْمَشْتَرَكِ، وَبِالتَّالِيِ لِلَّذِي يَجْسَدُهُ، أَيُّ لِلأَبِ مَوْرِسِ، لَمْ يَكُنْ يَتَصَوَّرُ أَنَّهُ يَسْتَطِيعُ أَنْ يَتَمَرَّدَ عَلَى الْأَسْبَابِ الْمَوْجِبَةِ، وَعَلَى مَصْلَحَةِ الْجَمِيعِ.

يَبْذُ أَنَّهُ كَانَ حَرِيئاً. وَقَلِيلَةٌ هِيَ الْأَيَّامُ الَّتِي كَانَتْ تُمَضِي دُونَ أَنْ يَكِيَّ فِيهَا زَوْجَتَهُ بِالسَّرِّ، كَانَ خَوْفُهُ مِنْ زَوَاجٍ جَدِيدٍ يَفُوقُ رَغْبَتَهُ فِي التَّخَلُّصِ مِنْ كَأَبَتِهِ. يَحْدِثُ نَفْسَهُ بِغَمُوضٍ بِأَنَّ الْحُبَّ اسْتَطَاعَ أَنْ يُوَاسِيَهُ لَمَّا أَتَاهُ بَغْتَةً، فَالْحُبُّ لَا يُوَاسِي بِغَيْرِ هَذِهِ الطَّرِيقَةِ. وَلَا نَجِدُهُ حِينَئِذَا نَبْحَثُ عَنْهُ، فَهُوَ يَأْتِي إِلَيْنَا عِنْدَمَا لَا نَنْتَظِرُهُ. وَمُسْرُوعَ الزَّوْاجِ الْبَارِدِ الَّذِي أَطْلَعَهُ عَلَيْهِ الْأَبُ مَوْرِسِ، وَهَذِهِ الْخَطِيئَةُ الْمَجْهُولَةُ، هِيَ وَرَبَّمَا كُلُّ الْجُودَةِ الَّتِي كَانَ يَقُولُهَا لَهُ عَنْ عَقْلِهَا وَفَضِيلَتِهَا، شَغْلًا رَأْسَهُ. فَانْصَرَفَ مُفَكِّراً كَمَا يَفْكُرُ الَّذِينَ لَيْسَ لَدَيْهِمْ مَا يَكْفِي مِنْ أَفْكَارٍ لَتَصْطَرَعَ فِيهَا بَيْنَهَا، أَيُّ أَنَّهُ لَمْ يَكُنْ لِنَفْسِهِ أَسْبَاباً مُقْنَعَةً لِيَقَاوِمَ أَوْ لِيَرْضَى أَنْانِيَتَهُ، إِنَّمَا رَاحَ يُعَانِي مِنْ أَلَمِ بِهِمٍ، لَا يَكْفِيهِ ضِدُّ شَرِّ أَرْغَمَ عَلَى الْقَبُولِ بِهِ.

ومع ذلك كان الأب مورييس قد عاد إلى الإكارة^(١) على حين كان
جرمان عند المغيب يشغل آخر ساعة من النهار بإغلاق الثغرات التي فتحتها
الخراف في طرف سياج في جوار البيوت. يرفع سيقان الأشواك ويدعمها بِكُتْلٍ
من التراب، بينما كانت عصافير السُّمَان تزقزق في الدَّغل المجاور وكأنها تُناديه
ليسرع، وكانت فضولية بمجيئها لامتحان عمله فُيْلَ رحيله.

(١) **La métairie** «الإكارة» أرض مُستأجرة يقاسم عوائلها كلَّ من المستأجر والمُؤجَّر بنسبة
٥٠٪، وهذا ما يُسمَّى بـ «المزارعة».

الفصل الخامس

الأرملة "غَيْيث"

لَقِيَ الأب موريِس في بيته جارةً عجوزاً كانت قد جاءت تتحدّث مع زوجته وهي تطلب جمرَةً لِتُشْعِلَ ناراً. كانت السيدة "غَيْيث" تسكن في كوخٍ بائِسٍ جداً على بعد مائة مترٍ من المزرعة. ولكنها مُنظّمة وإرادتها قوية. كان بيتها الفقير نظيفاً ومعنى به، وثيابها مرتّبة باهتمامٍ يُنبئُ عن احترامها لنفسها وسط هذه الشدّة.

"أَتَيْتَ تبحثين عن نارِ المساء يا سيّدة "غَيْيث"، قال لها العجوز، فهل تريدن شيئاً آخر؟"

-لا يا أب موريِس، أجابت، لا أريد شيئاً الآن، لست متسوّلة، كما تعرفون، ولا أُسرِف في الاستعانة بخير أصدقائي.

-إنها الحقيقة، وأصدقائك أيضاً حاضرون على الدوام لخدمتك.

-كنت أتحدّث مع زوجتك، وأسألهما عما إذا كان جرمان قد عزم على الزواج مرةً أخرى.

- أنتِ لست ثرثارة، ونستطيع أن نتكلّم أمامك دون خوفٍ من الأقاويل، لذلك أخبر زوجتي وأخبرك أن جرمان قد عزم على ذلك نهائياً، وسيتوجّه غداً إلى الفورش.

-ساعةً خيراً صرخت السيّدة موريس، يالهاذا الولد المسكين! إن شاء الله يجد زوجة طيبة وشجاعة مثله!

-آ، سيذهب إلى فورش؟ لا حظت السيّدة "مُنييت"، تصوّروا كيف اتفق الأمر! هذا يلائمني كثيراً، ولما كنتم قد طلبتم إليّ قبل قليل فيما لو كنت أريد شيئاً، سأقول لكم، يا أب موريس، من أية جهة يمكنكم إجباري على العלב.

-قولي، قولي، أنجرك، ونحن نريد أن تطلي!

-أودّ أن يتحمّل جرمان مشقّة اصطحاب ابنتي معه.

-أين؟ إلى "فورش"؟

-ليس إلى "فورش"، إنما إلى مزارع "أورمو"، حيث سَتَقِيم بقيّة السنة.

- كيف! تقول السيّد موريّس، أتهجرين ابتك؟

- يجب أن تعمل خادمة، وأن تكسب شيئاً ما. هذا يُزعجني ويُزعجها كثيراً، المسكينة! لم نستطع أن نقرّر فراقنا في موسم "القديس يوحنا" (١) وها هو موسم "القديس مارتان" (٢) "يحلّ وقد وجدت مكاناً ممتازاً لتعمل راعية في مزارع "أورمو". لقد كان صاحب المزارع ماضياً من هنا في أحد الأيام، أثناء عودته من السوق. فرأى ابني "ماري" التي كانت ترعى خرافها الثلاثة في أرض الشركة (٣) "لم تعودي مشغولة يا صغيرتي، قال لها، وثلاثة خراف لراعية ليسوا شيئاً يُذكر. فهل تريدین رعي مائة خروف؟ وأصطحبك معي. لأن راعية منطقتنا مريضة، وستعود إلى أهلها، ولو أردت أن تكوني عندنا قبل ثمانية أيام فسيكون لك خمسون فرنكاً (٤). لبقية السنة حتى موسم القديس يوحنا". البنت رفضت، لكنها لم تستطع أن تمنع نفسها من التفكير في الموضوع، وإعلامي به عندما عادت في المساء إذ رأيت حزينة، متضايقه من قضاء فصل الشتاء الذي سيكون قاسياً وطويلاً؛ فقد شاهدنا طيور الكركي والإوز البري تعبر أجواءنا هذه السنة قبل شهر كامل من موعد هجرتها المعتاد. بكينا نحن

(١) القديس يوحنا (٢٤ حزيران)، والقديس مارتان (١١ تشرين الثاني)، هما الموعدان اللذان كان يتم استئجار الخادمت

(٢) أرض تعود ملكيتها إلى جميع أهل القرية، ويستخدمها الفقراء مراعيّ ل مواشيهم.

(٣) بحسب جورج صائد كان الخادم في المزرعة يتقاضى سنة ١٨٤٤ عشرين فلساً في اليوم خلال فصل الصيف، وعشرة فلوس في اليوم خلال فصل الشتاء. ورأى ماري أقل من ذلك بكثير.

الانثنين؛ وأخيراً جاءت الجراءة، وتصارحنا بأننا لا يمكن أن نبقى معاً؛ إذ ليس لدينا ما يكفي لسدّ رمق شخص واحد من عائد قطعة الأرض؛ ولأن على ماري وقد بلغت سن الرشد (فها هي في السادسة عشرة)، أن تفعل كما تفعل الأخريات، وتجنّي لقمتها بيدها، وتساعد أمّها المسكينة .

- ياسيّدة "غّييت"، قال الفلاح العجوز، إذا كان لا يلزمكم إلا خمسون فرنكاً لفكّ ضاقتكم، ولإعفائك من إرسال ابنتك إلى منطقة بعيدة، فسأجدها لك، بصدق، وإن كان مبلغ خمسين فرنكاً يثقل كاهل أناس أمثالنا^(١) . وعلى أية حال يجب تحكيم العقل بقدر تحكيم العاطفة. فإذا ما نجوت من بؤس هذا الشتاء، فلن تنجي من البؤس القادم، وكلّما تأخّرت ابنتك في أن تأخذ قراراً، كلّما تفاقم غمّها وغمك من افتراقكما. وماري صبيّة وقوية، ولا عمل يشغلها في بيتك، وقد يدفعها ذلك إلى التعوّد على الكسل...

- من هذه الناحية، تقول السيّدة غّييت، أنا لا أخاف عليها، ماري بنت جسورة بقدر ماهي مدبّرة، ويمكن أن تكون مسؤولة عن عمل كبير، ولا تقف

(١) كان الدفع من المدخل يسبّب ألماً عارماً في (بيري) وعندما يدفع أحدهم عشرة فلوس، يتحسّر لوقت طويل النظر: جورج صالند، رسالة ١٨٤٤/١/١٢.

لحظة واحدة مكتوفة اليدين، وعندما لا يكون عندنا شغل، نتظف ونمسح أناثنا الفقير حتى يجعله صافياً كالمرآة. إنها طفلة تساوي ثقلها من الذهب، وكم كنت أتمنى لو تشتغل راعية عندكم بدل أن تذهب بعيداً عند أناس لا أعرفهم؛ كنتم أخذتموها في موسم القديس يوحنا لو أننا عرفنا أن نقرر؛ لكنكم الآن استأجرتكم كل الناس اللازمين لكم، ولا يمكننا التفكير بذلك إلا في موسم القديس يوحنا للسنّة القادمة.

-إيه أنا أوافق عليها من كلّ قلبي يا سيّدة غيّيت! وكسوف يسعدني ذلك. ولكنها بانتظار العام القادم، يُستحسن أن تتعلّم مهنة، وتعود على خدمة الآخرين.

- نعم، دون شك، لقد أصابها نصيبها؛ فصاحب مزارع "أورمو" قام بطلبها هذا الصباح؛ وقلنا نعم، ويجب أن تذهب. لكن الطفلة البائسة لا تعرف الطريق، ولا أحبّ أن أبعثها وحيدة هذه المسافة البعيدة. ولما كان صهركم ذاهباً إلى فورش في الغد، فبإمكانه أن يأخذها معه. ويبدو أن فورش قرية من المنطقة الراحلة إليها، على حدّ ما قيل لي؛ لأنني لم أسافر في حياتي صوبها.

-إنها على مقربة منها، وسيقودها صهري إليها. هذا واجب. حتى إنه يمكن أن يصطحبها راكبةً على الفرس، مما سيحمي حذاءها، هاهو يعود ليتعشى، قل لي، يا جرمان، الصغيرة ماري بنت السيدة غيّيت ستسافر إلى "أورمو" لتعمل راعية، ستأخذها على فرسك أليس كذلك؟

في عالمنا الخاص بنا، لا يخطر ببال أم من الأمهات مثل هذا الخاطر، بأن تؤمن رجلاً في الثامنة والعشرين، لأن عمر جرمان لم يكن في الحقيقة سوى ثمانية وعشرين عاماً، على بنت في السادسة عشرة؛ ومع أنه عجوز من وجهة نظر الزواج بحسب عادات بلادنا، كان أجمل رجل في الناحية. فالعمل لم يكن قد أضناه بعد وأذبله كأغلبية الفلاحين الذين تراكت على رأسهم عشر سنوات من الفلاحة. وكان له من القوة ما يجعله يفلح عشر سنوات أخرى دون أن يبدو عجوزاً، وينبغي أن يكون تخمين العمر قوياً جداً على عقل فتاة صبية ليمنعها من رؤية أن جرمان سحنة طرية، وعين بارقة زرقاء كسماء شهر أيار، وفم وردي، وأستان جميلة، وجسم متناسق منساب كجسم حصان فيّ لم يُمارح المراعي بعد.

إنما نزاهة الأخلاق عُرِفَ مقدّس في بعض الأرياف البعيدة عن الحركة الفاسدة للمدن الكبرى، ومن بين جملة عائلات "نوهان"، كانت عائلة "موريس" مشهورة بشرفها، وخدمتها للحقيقة. كان جرمان مسافراً لبحث عن زوجة، وكانت ماري أصغر وأفقر من أن يفكر فيها من هذا المنظور، وكان من المستحيل أن تخطر له فكرة سيئة تجاهها، إلا إذا كان رجلاً شريراً من دون قلب. والأب موريس لم يقلق إطلاقاً وهو يراه يأخذ الفتاة الجميلة راكبة على الفرس، واعتقدت السيدة "إلييت" أنها توجّه إليه إهانة فيما لو طلبت منه أن يحترمها كأخته؛ وهكذا صعدت ماري على ظهر الفرس وهي تبكي بعد

أن عانقت أمها ورفيقاتها الصبايا عشرين مرة. ورحل جرمان الذي كان حزيناً
من جهته، ومُشفقاً بالأحرى على كاتبها، بهيئة وقورة، بينما كان الجيران
يُلَوِّحون بأيديهم وهم يقولون وداعاً لما ري البائسة دون أن يُراودهم سوء
الظن.

الفصل السادس

بيير الصغير

كانت الفرس "الصهباء" فتية، جميلة، وقوية، تحمل حملها المضاعف دون عناء، ومن حيث هي مكابرة وذات حجة، راحت تمدُّ أذنها، وتقضم لجامها. وبينما كانت تمرّ أمام المرعى الطويل، لححت أمها التي تُسمّى بـ "الصهباء العجوز" كما تُسمّى هي بـ "الصهباء الفتية"، صهلت علامةً على الوداع. اقتربت "الصهباء العجوز" من السياج مُخلِجةً عقل رجليها، وهي تحاول أن تحبّ على طرف المرعى لتلحق بابتها؛ ثم بدأت تصهل بدورها عند رؤيتها تسرع، ووقفت مفكرة قلقة، رأسها إلى الأعلى، وفمها مملوء بالعشب الذي لم تعد تفكر بأكله.

"هذه الدابة المسكينة تعرف دوماً ذريتها؛ قال جرمان إيسلي ماري الصغيرة عن حزنّها. ممّا يذكرني بأنني لم أودّع ولدي الصغير "بيير" قبل

الرحيل. الولد الشقي لم يكن هنالك! كان يريد البارحة مساءً أن يجعلني أعدده
باصطحابه معي، وبكى لمدة ساعة في سريره. وعند الصباح حاول بكل
الوسائل أن يقتنعني. أوه! كم هو غنوج ومتكاسل! لكن عندما رأى أن
اصطحابه غير ممكن، غضب السيد: راح يعدو بين الحقول، وما عُدت رأيته
خلال النهار.

- أنا رأيته، قالت ماري وهي تجهد لإخفاء دموعها. كان يجري مع
أولاد "سولا" من جهة الأشجار المقطوعة، واعتقدت أن وقتاً طويلاً مضى على
وجوده خارج البيت، لأنه كان جائعاً، وكان يأكل ثمار البرقوق، والتوت
البري. أعطيته خبزاً من زوائدتي، وقال لي: "شكراً يا صديقتي الظريفة ماري: عند
بجيتك إلى بيتنا سأقدم لك حلوى "الغاليث".". ابنك لطيف جداً يا جرمان!

- نعم، ياله من لطيف، أجاب جرمان، ولست أدري ما الذي لم أفعله
من أجله! لو لم تكن جدته أرجع عقلاً مني، لما أستطعت أن أقاوم اصطحابه
معني، حينما كنت أراه يصرخ باكياً حتى انتفخ قلبه الصغير.
- طيب! ولماذا لاتأخذ معك يا جرمان؟ فهو لن يزعجك كثيراً! ومعقول
جداً عندما يتحقق ما يريد!

- يبدو أن وجوده سيكون عبئاً هنالك حيث أذهب. على الأقل كان
هذا رأي الأب موريس... وأنا مع ذلك، كنت أتصور، على العكس، أنه يجب

أن يرى كيف يستقبلونه، وأن طفلاً لطيفاً إلى هذا الحد لا يمكن إلا أن يكون
مُعتَبَراً بمشاعر صداقة حميمة... لكنهم يقولون في البيت ينبغي ألا نبدأ بإظهار
متاعب العائلة... لا أعرف لماذا أحدثك عن هذا، ياماري الصغيرة، وأنت
لا تفهمين شيئاً منه؟

-بلى، يا جرمان؛ أعرف أنك ستزوّج مرة ثانية؛ أخبرتني أمي طالبةً مني
ألا أتكلم بهذا أمام أحد، لاني بيتكم، ولا في المكان الذي أذهب إليه، ويمكنك
أن تكون مُطمَئِنّاً: لن أنطق بكلمة واحدة.

-أحسن، لأن الأمر لم يتمّ بعد؛ وقد لا أناسب المرأة المعينة.

-يجب أن تأمل خيراً يا جرمان. ولماذا لن تناسبها؟

-من يعرف؟ عندي ثلاثة أطفال، وهذا صعب على امرأة ليست هي
أمهم!

-صحيح، لكن أطفالك ليسوا كالأطفال الآخرين.

-أتظنين ذلك؟

-- إنهم رائعون كملائكة صغار، وتريبتهم حسنة إلى حدّ أننا لا نرى أطفالاً
الطيف منهم.

-لدينا "سيلفان" غير المريح كما يجب.

-إنه صغير جداً ولا يمكن إلا أن يكون مُزعجاً، ولكنه شديد الذكاء!

-حقاً إنه ذكي، وجري! لا يخاف البقرات ولا الثيران، ولو تركناه يفعل،
لَتَسَلَّقَ على ظهر الأحصنة هو وأخوه الكبير.

-أنا، في مكانك، كنتُ اصططحتُ الكبير، وأكيد أنَّ وجود طفل بهذا
الجمال عندك قد يجعلها تُجِئكَ فوراً!

-نعم، إذا كانت المرأة تُجِبُّ الأطفال؛ لكن إذا لم تكن تُجِيبُهُم!

-هل توجد نساء لا يجيبن الأطفال؟

-لَسُنَّ كثيرات، على ما أظن، إنما هُنَّ موجودات في النهاية، وهذا
ما يُعَذِّبُنِي.

-إذا أنتَ لا تعرف هذه المرأة أبداً؟

-ليس أكثر مما تعرفينها، أخشى ألا أعرفها بصورة أفضل بعد أن أراها.
فأنا غير حذير. وعندما يُقال لي كلامٌ طيب، أصدقُه: حتى إنني نَدِمْتُ أكثر من
مرة، لأن الكلام لا يتطابق مع الأفعال.

-يقال إنها امرأة طيبة جداً.

-من يقول ذلك؟ الأب مورييس!

-نعم، يقوله سموك.

-عال: ولكنه لا يعرفها على الإطلاق.

-طيب، سترأها بعد حين، وستتنبه جيداً، ويجب أن تأمل بالآلة الخدع
ياجرمان.

-- اسمعي، ياماري الصغيرة، سأكون مسروراً لو أنك تدخلين بيتها قليلاً،
قبل أن تذهبي مباشرة إلى مزارع "أورمو": فأنت نبيهة، وقد برهنت دائماً على
ذكائك، ولا تفوتك ملاحظة شيء، فإذا رأيت شيئاً يدعو إلى الريسة تُنبّهيني
بهدهوء.

-أوه! لا، ياجرمان، لن أفعل هذا! أخشى كثيراً من أن أخطئ؛ ومن
جهة ثانية لو أن كلمة قلت دون قصد أدت إلى صدك عن هذا الزواج،
سيكرهني أقرباؤك، ولديّ ما يكفي من هموم مُشابهة، ولا داعي لجرّ أحزان
أخرى على أُمي المسكينة .

وبينما كانا يتحدثان، تراجعت الصهباء رافعة أذنيها، ثم استأنفت خطواتها، واقتربت من الدغل، حيث بدأت تتعرّف شيئاً أخافها في البداية. ألقى جرمان نظرةً على الدغل، ورأى في الخندق، تحت أغصان كثيفة لاتزال طريةً قُطِعت حديثاً من سندية، شيئاً حَسِبَ أنه حَمَلٌ، قال: "هذه دابةٌ تائهة أو مَيِّتة، لأنها لاتتحرك. وربما يبحث عنها أحد. يجب أن نرى ما الأمر!

-ليست دابةً، صرخت ماري، إنه طفلٌ نائم؛ هذا ابنك الصغير يبير.

-عجيب! قال جرمان وهو ينزل عن ظهر الفرس: انظروا هذا الولد الفاسد الذي ينام هناك، بعيداً جداً عن المنزل، في هذا الخندق حيث يُمكن أن تلدغه أفعى!"

ويجعل بين ذراعيه الطفل الذي ابتسم له وهو يفتح عينيه، وأحاط عنقه يديه قائلاً له: "يا أبي الغالي، ستأخذني معك!

- آه، نعم! دائماً النعمة نفسها! ماذا كنت تفعل هنا يا بيبير الشقي؟

-كنت أنتظر مرور بابا من هنا؛ قال الطفل، أراقب الطريق، ولكثرة ما انتظرتُ، غَفَوْتُ.

-ولو كنتُ مررتُ دون أن أراك، كُنْتُ ستبقى خارج البيت طوال الليل، وكانَ أَكَلُكَ الذئب!

-أوه! كنت أعرف أنك ستزني! أجاب بيير الصغير واثقاً.

-طيب! الآن، يا ولدي بيير، عانقني، وقل لي وداعاً، وعُدْ بسرعة إلى البيت، إذا كنت لا تريد أن يتعثروا من دونك.

-إذا أنت لا تريد أن تأخذني! صرخ الطفل وهو يفرك عينيه ليظهر أنه عازمٌ على البكاء.

- أنت تعرف جيداً أن جدك وجدتك لا يريدان ذلك ، قال جرمان تخمياً وراء سطة حمويه المعجوزين، كرجل قلماً يعتمد على سلطته الخاصة.

لكن الطفل لم يسمع شيئاً. فبدأ يبكي بكاءً حقيقياً، وهو يقول طالما أن والده يصطحب ماري، فبإمكانه أن يصطحبه أيضاً. ردّاً عليه بأنهم إن أخذاه معهما يجب أن يجتازوا الغابات الواسعة هناك حيث يوجد الكثير من الحيوانات الشرسة التي تأكل الأطفال الضعفاء، والفرس الصهباء لا تريد أن تحمل ثلاثة أشخاص كما صرّحت وهي ترحل، وبأنه لا يوجد في المنطقة التي يذهبون إليها، سرير، ولا عشاء للأطفال. هذه الأسباب القوية كلها لم تُقنع بيير الصغير؛ فارتمى على العشب وراح يتمرغ به صارخاً بأن والده لم يعد يُحبّه، وبأنه لن يعود إلى البيت لاني النهار ولا في الليل إذا لم يأخذه معه.

كان لجرمان قلبُ أب عطوف ضعيف كقلب امرأة. فموت زوجته،
والعناية التي جهد وحيداً ليؤمّنها لصغارها، وكذلك فكرة أن هؤلاء الأطفال
المساكين الذين لا أم لهم بحاجة إلى الكثير من الحبّ، أسهموا في جعله هكذا،
وقامت في داخله معركة قاسية، فيقدر ما كان يصرّ خجلاً من دفعه ويجهد في
إخفاء امتعاضه عن الصغيرة ماري، بقدر ما كان العرق ينهمر من جبينه،
وتُحاط عيناه بهالة حمراء مهيّأة للمزيد من البكاء. وأخيراً حاول أن يغضب؛
لكنّه، وهو يلتفت صوب ماري، كما لو أنه يتخذها شاهداً على عناده، رأى
أن وجه هذه الفتاة الطيبة مغسول بالدموع، فخائته شجاعته، وكان يستحيل
أن يحبس دموعه مع أنه كان لا يزال يصقّ ويهتّد.

.. في الحقيقة، قلبك قاسٍ جداً، قالت له ماري أنصراً، ومن جهتي، لا
أقدر أبداً على أن أقاوم بهذه الطريقة، طفلاً بالغ الحزن. هيا! خذْ معك،
يا جرمان. فرسُكم مُعوّدةٌ تماماً على حمل شخصين وطفل، بإذليل أن تخمّوك
وحمايك الأكثر وُزناً مني بكثير، يذهبان يوم السبت إلى السوق مع ألبهيم،
على ظهر هذه الفرس الممتازة. ستَضَعُ أمامك، ومن جهة ثانية، أثني لو أذهب
مشيّاً على الأقدام وحدي ولا أسبّب الأسى لهذا الصغير.

- أجاب جرمان: إذا سأتنازل عن رأيي وقد كنت أرغب قبل قليل في
أن أترك نفسي تقنع (باصطحابه). فالصّهباء قويّة وتملأ شحوباً خزيين
أيضاً، لو كان على ظهرها مكان. لكن ما الذي سفعله إزاء هذا الطفل على

الطريق؟ فقد يبرد، ويجوع ... ومن سيعتني به هذه الليلة وغداً ليُنيمه، ويُغسله،
ويُلبسه؟ ولست أجرؤ على إسناد هذا الإزعاج على امرأة لا أعرفها، سترى،
من دون شك، أنني أرفع الكلفة نهائياً وأنا أبدأ قصتي معها.

- بحسب الود أو الضيق الذي سُبيليه، سوف تعرفها على الفور، صدقني
يا جرمان، ومن جهة أخرى، إذا صدقتُ ابنك يسير، فأنا أتكفل به. سأتي إلى
بيتها لألبسه ثيابه، وسأخذه إلى الحقول غداً. سأسأله طوال النهار، وسأحرص
على ألا ينقصه شيء.

- سيضايقك يابني الطيبة! سيزعجك! نهراً بأكمله! وهذا وقت
طويل!

- على العكس، سيروقي ذلك، سيؤمن لي رفقة تجعلني أقل حزناً في اليوم
الأول الذي عليّ أن أقضيه في بلد جديد. سأصور أنني لا أزال في بيتنا.

تعلق الطفل بتورة ماري، وهو يراها تقف في صفه، بقوة كان عليها أن
تسبب له الألم لانزعاجها منه. وعندما لاحظ أن أباه شرع يقتنع، أخذ يد
ماري بين يديه الصغيرتين السمراوين الملوحتين بأشعة الشمس، وراح يقبلهما
وهو يرقص فرحاً، ويشدّها باتجاه الفرس، مع العجالة الحامية التي يحملها
الأطفال في رغباتهم. "هيا بنا، تقول الصبية، وهي ترفعه بين ذراعيها، ولنحاول
أن نريح هذا القلب المسكين الذي يقفز كعصفور صغير، وإذا أحسست بالبرد

عند حلول الليل، قل لي، يا صغيري بير، سأُفكُّ بِرْتُسِي الصوفي. عانقُ
وَالِدَكَ، واطلُبْ منه السماح على ما فعلت من سوء. قل إن ذلك لن يتكرَّر
أبدًا، أبدًا، هل تسمع؟"

-نعم، نعم، على شرط أن أحقق له دائماً ما يريد أليس كذلك؟

يقول جرمان وهو يمسح عينيَّ الطفل الغريب...حقاً أنت بنت طيبة
للغاية، ياماري. لا أعرف لماذا لم تعلمي راعيةً عندنا في موسم القديس بطرس
الأخير. كم كنت ستعتين بأطفالي، وكم كنتُ سأسعد بأن أضع لكِ أجراً
طيّباً على خِدْمَتِهِمْ، بدلاً من أن أذهب لأبحث عن امرأة ربما ستعتقد أنّها تقدِّم
لي الفضل الكبير إذا هي لم تكرههم.

- يجب ألا ترى الأشياء هكذا من جانبها السيء، أجابت ماري وهي
تُمسِكُ زمام الفرس عندما كان جرمان يُجْلِسُ وَلَدَهُ على مقدِّمة السرج
المكسوة بجلد الماعز: فيما لو كانت زوجتكُ لَاتُحِبُّ الأطفال، تأخذني لخدمتكم
السنة القادمة، وكن مطمئناً، سأُسَلِّهِمْ إلى درجة أنهم لن يُلاحظوا شيئاً (قد
تغيّر.

الفصل السابع

فِي الْبَرَّاحِ

لكن ا قال جرمان، بعد أن مشوا بضع خطوات، بماذا سيظنون في البيت عندما يروَن أن هذا الولد لم يُعد؟ سيكون الأهل قَلْبَيْن، وسوف يبحثون عنه في كُلِّ مكان.

ستقول لمرَّم الطريق الذي يعمل في الأعلى هناك، إنك تصطحب ابنك، وستطلب إليه إبلاغ أهلك.

صحيح يا ماري، أنت تحسّنين لِكُلِّ شيء. أمّا أنا فلم أكن أفكر، بعد، أن "جاني" ينبغي أن يكون هنا.

و بالضبط هو يسكن بالقرب من الإكارة، ولن يقصّر في القيام بالمهمة.

وحينما احتاطوا بهذا الضمان، حث جرمان الفَرَس لإستئناف المسير، وكان بيير الصغير سعيداً جداً حيث لم يُدرك على الفور أنه لم يتناول

الام العشاء، لكنه، وحركة الفرس تقرص معدته، بدأ بعد مسافة فرسخ
يشاءب، ويشحب لونه، ويعترف أنه يوشك أن يموت من الجوع.

- ها هو يبدأ، قال جرمان، كنت أعلم جيداً أننا لن نذهب بعيداً قبل أن
بصرخ هذا السيد من الجوع أو من العطش.

- أنا عطشان أيضاً قال الصغير بيير.

- طيب! سندخل إذاً مقهى الأم "روبيك" في "كورلي" (١) في فندق "مطلع
النهار". (٢) الاستقبال فيه جيد، إنما موقعه بائس! هيا يا ماري، سنشرب أيضاً
جرعة من نبيذ.

- لا، لا، لست بحاجة إلى شيء، قالت، سأمسك الفرس خلال دخولك مع
الصغير.

لكنني أقصد دعوتك يا بني الطيبة، لقد أعطيت خبر زوادتك هذا
الصباح لابني بيير، وأنت لم تكسري الصُغرة، ولم تشائي أن تتعشني معنا في
البيت، ولم تكوني تفعلي سوى البكاء.

(١) Corlay، قرية تقع على مرتفع يبعد ٧ كم عن لوهان، على طريق. شارلوروا أي في منتصف
المسافة بين لوهان وفوروش (القر الحارطة).

(٢) Point du jour صاحبه الأم روبيك الملقبة بـ «العرجاء البدينة».

-أوه! لست جائعة، كنت مهمومة جداً، وأقسم لك أنني الآن أيضاً لا أشعر بأية رغبة في الأكل.

-ينبغي إجبارك، أيتها الصغيرة، وإلا فستمرضين. أمامنا مسافة طويلة علينا اجتيازها، وعلينا ألا نصل هنالك جائعين لنطلب الخبز قبل أن، نسلم. أنا بنفسني سأعطيك المثال، فمع أنني لا أشتهي الطعام كثيراً، لكن شهيتي ستفتح كلياً، باعتبار أنني، في نهاية الأمر، لم أتعش أيضاً. كنت أراك تبكين، أنتِ وأُمك، وكان هذا المنظر يقطع أنياط قلبي. هيا، هيا، سأربط الصهباء بالباب، انزلي، أريد أن تنزلي".

يدخلون، كلهم، عند السيدة روبيك، وخلال أقل من ربع ساعة، نُجحت هذه العرجاء البدينة في أن تقدم لهم ييضاً مقلباً شهياً وحبزاً أسمر، ونيلاً مصفى.

الفلاحون لا يأكلون بسرعة، وكانت شهية الصغير بير جِدُّ مفتوحة حيث مضت ساعة كاملة قبل أن يفكر جرمان باستئناف المسير. وكانت الصغيرة ماري قد أكلت على استحياء في البداية، ثم جاء الجوع شيئاً فشيئاً، ففي سن السادسة عشرة لا نستطيع أن نطبق الحمية عن الطعام لوقت طويل، ومناخ الأرياف قاسٍ. والكلام الطيب الذي قاله لها جرمان ليؤاسيها، وليبعث فيها الجرأة، أنتج اثره أيضاً، فجهدت لإقناع نفسها أن سبعة أشهر ستقضي عمّا قريب، لتحلم بالسعادة التي ستعيشها إذ تجد نفسها بين أهلها، وفي

قريتها، لأن الأب مورييس وجرمان اتفقا على وعدها بأخذها لخدمتهم. لكن، لما بدأت تبتهج وتمزح الصغير بيير، خطرت على بال جرمان الفكرة البائسة بأن يجعلها تنظر من خلال نافذة المطعم مشهّد الوادي الجميل الذي نراه بأكمله من هذا الارتفاع، متفتحاً، خصيباً، عارم الخضرة. نظرت ماري متسائلة عمّا إذا كانت تُرى من هناك منازل "بولير".

"دون شك، يقول جرمان، وتُرى الإكارة أيضاً، وحتى يتكلم. انظري هذه النقطة الرمادية الصغيرة، ليست بعيدة عن شجرة الخور في "غودار"، تحت قبة جرس الكنيسة.^(١)

-آه ! أراها، قالت الصغيرة، وهنا عادت إلى البكاء من حديد .

-لقد أخطأت يجعلك تفكرين بهذا، يقول جرمان، لم أفعل اليوم سوى ارتكاب الحماقات ! هيا بنا، يا ماري، لنذهب يا بنتي، فالنهار قصير، وخلال ساعة، عندما سيصعد القمر، لن يعود الطقس دافئاً".

(١) الدليل على «بولير» في الرواية هي «لوهان» في الواقع، هو أن «بولير» لا توجد فيها كنيسة.

تابعوا طريقهم، واجتازوا البراح الواسعة، ولم يكن جرمان يستطيعان ان يجعل الصهباء تُسرّع كثيراً، كي لا يرهق البنت الصبية والطفل بسفر طويل جداً، وعندما تركوا الطريق ليدخلوا الغابة كانت الشمس قد غابت.

كان جرمان يعرف الطريق حتى "مانيه"، لكنه كان يظن أنها ربما تكون أقصر، إذا لم يسلك طريق "شاتلوب"، غير أنه وهو ينحدر باتجاه "بريسل" و"السييلير"، وهذا اتجاه لم يتعود على اتّباعه عندما كان يذهب إلى السوق، أخطأ الطريق، وأضاع زمناً قبل أن يدخل الغابة، ولما دخلها ثانية من الجانب الصحيح، ما لاحظ ذلك، مع أنه كان يُدير ظهره لـ "فورش" ويقطع مسافة طويلة أعلى، من جهة "أردانت" (١).

وما كان يُعيقه عندئذٍ عن التوجّه، ضبابٌ كثيفٌ كان يتصاعد مع قدوم الليل، ضبابٌ من ألوانِ ضبابِ ليالي الخريف يجعله ضوء القمر الأبيض أكثر غموضاً، وأكثر خداعاً. وكانت برك الماء الكبيرة التي تتناثر على سطحها المنافذ العضوية تنوح بأخيرة كثيفة إلى حدّ أنه لم يُكن يُلاحظ من الصهباء وهي تتعازها، سوى ببقعة أقدامها التي كانت ترفعها بصعوبة من الوحل.

(١) طريق «شاتلوب» عمودية على الطريق من «لوهان» إلى «شاورو» وتجتاز الغابة في الاتجاه الشمالي الشرقي والجنوبي الغربي. و«بريسل» تقع جنوب غابة شاتلوب و«السييلير» هو، لا شك، هضبة «بريسل» التي يعتبرها أهل المنطقة ضريحاً رومانياً.

وفي النهاية عندما وجدوا ممراً مستقيماً، ووصلوا إلى آخره، بحث جرمان ليرى أين كان، فأدرك أنه كان تائهاً، لأن الأب مورييس وهو يده له على الطريق قال له إنه سيكون عليه بعد الخروج من الغابة أن ينزل على طرف منحدر وعبر، ويحتاز مراعي واسعة، ويحتاز نهر الـ"أندر" مرتين في خاضعة؛ حتى إنه كان مطلوباً منه أن يخوض في النهر بخدر شديد، لأن أمطاراً كثيرة كانت قد هطلت في بداية الموسم، ويمكن أن يكون منسوب الماء مرتفعاً فيه. ولما لم يجد منحدراً، ولا مرعى، ولا نهراً، إنما وجد الريح متصلة بيضاء كغطاء من الثلج، توقف جرمان، بحث عن منزل، وانتظر إنساناً عابراً، ولم يجد أي شيء يده. عندئذ عاد على أعقابهم، ودخل الغابة. بيد أن الضباب تكاثف أكثر أيضاً، وكان القمر مغشى تماماً، والطرقات خفيفة، والمستنقعات عميقة. أو شكت الصهباء على الوقوع مرتين، فلما كانت تحمل ثلاثة، فقدت اندفاعها، وإذا كانت تحتفظ بشيء من الإبصار كي لا تصطدم بالأشجار، فلم تكن تستطيع أن تمنع اصطدام الراكبين على ظهرها بأغصان ضخمة كانت تقطع الطريق على ارتفاع رؤوسهم، وتضعهم في خطر شديد. وقد فقد جرمان قبضته في واحد من هذه الاصطدامات، وعانى كثيراً حتى وجدها. كان الصغير يبرير قد نام، ولما ترك نفسه يتأرجح كحقيقية، كان يمسك بذراعي والده إلى درجة أن الوالد لم يعد يستطيع مساندة الفرس ولا قيادتها.

ـ اعتقد أننا مسحورون. يقول جرمان وهو يتوقف: فهذه الغابة^(١) ليست من الضخامة حيث يضيع المرء فيها، إلا إذا كان سكران، ومنذ ساعتين على الأقل ونحن ندور فيها دون أن نستطيع الخروج منها. وليس عند الصهاء سوى فكرة واحدة في رأسها: أن تعود إلى البيت، وهي التي تجعلني أضيع. وإذا ما أردنا الذهاب إلى بيوتنا، فما علينا إلا أن نتركها تفعل. لكننا ونحن قد نكون على بعد خطوتين من المكان الذي يجب أن ننام فيه، فنسكون بحانين إن أهملناه، واستأنفنا مسيراً طويلاً. ومع هذا فأننا لم أعد أعرف ما أفعل. ولا أرى لا الأرض ولا السماء، وأخشى أن يُصاب هذا الطفل بالحُمى إذا ظللنا في هذا الضباب اللعين، أو أن يسحقه ثقلنا فيما لو وقعتِ الفرس نحو الأمام.

يجب ألا نعاود أكثر، تقول الصغيرة ماري. لنُنزل يا جرمان، أعطيني الطفل، ساحمله جيداً، وسأمنع بصورة أفضل مما تفعل، أن تنزاح عنه العبء، وتكشف جسمه. جَرَّ الفرس من زمامها، ورَمَسَا سري بوضوح أكثر عندما تصبح أقرب إلى الأرض.

لم نَجْهِم هذه الوسيلة إلا من السُّقُوط عن الفرس، لأن الضباب كان يَدْبُ، ويدو ملتصقاً بالأرض الرطبة. كان السَّيْر مُتَعَباً، فغدروا بعد قليل مُنْهَكِينَ حيث توقفوا عندما لاقوا أخيراً مكاناً جافاً تحت أشجار سنديان

(١) تبلغ مساحة غابة «شالطوب» ٤ كم ٢

ضحمة. كانت الصغيرة ماري متفرقة، ولكنها لم تُشك ولم تقلق من شيء .
وكونها مشغولة بالطفل فقط، جلست على الرمل، وأنامت على رُكبتَيها، بينما
كان جرمان يستكثِف الأماكن المحيطة بعد أن علّق أعنة الفرس يَغصن
شجرة.

إلا أن الصهباء المتضايقة كثيراً من هذه الرحلة، نهزت، وقطعت الرّسن،
وهشمت الأحزمة، مُطلقةً، بطريقةٍ مُكتسبة، عدداً من الرّقسات أكثر علوّاً من
رأسها، وهي تهرب عبر الأحراش مُظهرةً بقوة أنها لم تكن بحاجةٍ أحداً لتُعثر
على طريقها.

قال جرمان بعد أن حاول عبثاً أن يلحق بها، ها نحن على الأقدام، ولم
يعد لنا من شيء يُلدنا على الطريق الصحيحة، لأنه سيتوجب علينا أن نقطع
النهر على أقدامنا، وعلى رؤية امتلاء هذه الطرقات بالمياه، نستطيع أن نكون
مُتأكّدين من أن المرعى تحت النهر. ونحن لانعرف المعابر الأخرى. إذا ينبغي أن
نتنظر انقشاع هذا الضباب، ولا يمكن أن يدوم ذلك أكثر من ساعة أو
ساعتين. وحينما سنرى بوضوح، سوف نبحت عن منزل، أول منزل يقع على
طرف الغابة، أمّا الآن فلا نستطيع الخروج من هنا، فهناك خندق، ومستنقع،
وما لست أدري أماننا، ولا أعرف أن أقول ماذا يوجد وراءنا، لأنني لم أعد
أعرف من أية جهة وصلنا.

الفصل الثامن

تحت السنديانات الضخمة

- حسناً، لنصبر يا جرمان، قالت الصغيرة ماري. لسا في وضع سيء على هذا الارتفاع. والمطر لا يَحترق حميلة هذه السنديانات الضخمة، ويماكاننا أن نشعل النار، لأنني أشمُّ رائحة حطب قديم لا ينفع لشيء، وجاف بما يكفي لإشعاله، فهل لديك نار يا جرمان؟ كنت تُدخنُ غليونك قبل قليل.

- كان معي نارا قَدْ أَحترى كانت على السَّرَج في الحقيقة، مع الطرائد التي كنت أحملها لزوجة المستقبل، لكنَّ الفَرَس اللعينة حملت معها كلَّ شيء، حتى معطفي الذي ستُطَيِّعه وتمزِّقه بين الأغصان.

- لا أبداً يا جرمان، السَّرَج والمعطف والحقيبة هناك على الأرض، عند قدميك. لقد كسرت الصهباء الحزام ورمت كلَّ شيء على الأرض وهي تهرب.

-قال الفلاح: يا إلهي! هذا أكيدا فإن استطعنا إيجاد قليل من الخشب
اليابس كيفما اتفق، لنحنا في تنشيف ثيابنا، وتدفع أنفسنا.

-ليس هذا صعباً، تقول الصغيرة ماري، فالحطب اليابس يُلقط تحت
الأقدام في كل مكان، إنما أعطني أولاً السرج إلى هنا.

-وماذا تريد أن تصنعي به؟

-سريراً للصغير: لا، ليس هكذا، بل بالمقلوب، لن ينزل الولد من الممر
النصفي أولاً، ولا يزال دافئاً من ظهر القرس ثانياً. أبسطه لي من كل طرف
بهذه الحجارة التي تراها هناك.

- أنا لا أراها! لديك إذا عيون قطرة!

-نحذا! ها هو إنه جاهز يا جرمسان، أعطني معطفك، لأغطي به قدميه
الصغيرين، وسأضع عباءتي فوق جسمه. انظروا إن لم يكن نائماً هناك جيداً
كما في سريرها والمس كم هو دافئ!

-حقاً! إنك ملائمة للعناية بالأطفال يا ماري!

-ليس هذا يسخر. والآن فتش عن قدامتك في حقيبتك، وأنا سأهيء
الحطب.

.. هذا الخطب لن يشتعل أبداً، فهو رطبٌ جداً.

.. أنت تشكُّ في كلِّ شيء، يا جرمان! أنت لا تتذكَّر إذاً أنك كنت راعياً، وأشعلت نيراناً والعةً في الحقول، وسط انهماك المطر؟

— نعم إنها موهبة الأطفال الذين يخرسون الدواب، أمّا أنا فقد كنت سائق بقر (١) منذ تعلّمت المشي.

— ولهذا السبب تتفوّق قوّة ذراعيك على مهارة يديك. خُذْ، ضع هذه «القرمة» وسرى إن كانت لن تشتعل! أعطني القدّاحة، وحفنة من القشّ الجاف. طيّب! انفخ الآن، أَلَسْتُ مصاباً بمرض في الرئتين؟

لا على حدِّ علمي، قال جرمان وهو ينفخ مثل كبير حدّاد. وخلال لحظة، برقت الشعلة، باعثةً أولاً ضوءاً أحمر، ومتصاعدةً أخيراً بدفقة توهّج مُزْرَقَةٌ تحت خميلة السنديان، تصارع ضد الضباب مُنْثَقَّةً الجُورَ على تحيط عشرة أقدام.

(١) سائق البقر هو الذي يقود البقران إلى الملبح.

- والآن سأجلس إلى جانب الصغير كي لا يتساقط الشَّرَرُ على جسمه،
تقول الصبيّة، وأنت ضع الحطب، وأوقد النار يا جرمان! لن نصاب هنا لا
بالحمى ولا بالزكام، وها أنذا أجيئك.

- قال جرمان: بذمتي أنت بنت ذكيّة، وتعرفين أن تشعلي النار كساحرة
ليلٍ صغيرة. أشعر باتعاش كامل، وبأنّ روحي تعود إليّ، فقبل قليل كنتُ مُعكّر
المزاج وأنا مُبلّل حتى الركبّتين، ظانّاً أنني سأبقى كذلك حتى طلوع النهار.
- أوّلاً نحتسبُ لِشيءٍ عندما نكون مُبلّلين؟ أردفت ماري.

- إذا أنت لا يتعكّر مزاجك أبداً؟

- لا أبداً. وما نفع ذلك؟

- أوها إنه عديم النفع، بالتأكيد، ولكن ما الحيلة التي تمنعنا عن تعكّر
المزاج عندما نكون مُتضايقين، يعلم الله أنها لا تنقصك، أنت، يا صغيرتي
المسكينة: لأنك مع ذلك لم تكوني سعيدة دوماً!

- صحيح، لقد عانينا، أنا وأمي الفقيرة. كنّا مهمومتين، ولكنّنا ما فقدنا
الشجاعة أبداً.

-- قال جرمان: ربما كنت لن أفقد العزعة في بعض الأعمال مهما كانت، لكنّ الوسّ نكبتني، فأنا لم ينقصني شيء أبداً. وقد جعلتني زوجتي غنياً، وسأبقى طالما أنني أعمل في المزارعة: وسيدوم ذلك كما أرجو، إنما لكل إنسان همّه! أنا عانيت بطريقة أخرى.

-- نعم، لقد فقدت زوجتك، وهذه مصيبة كبيرة.

أليس كذلك؟

· أوه! لقد بكيتها كثيراً، لأنها كانت طيبة جداً. هيّا، يا جرمان! يكفي، فلننوّقْ عن الكلام عليها، لأنني سأبكيها أيضاً، فأحزاني كلّها توشك أن تنهمر عليّ اليوم.

-- هذا صحيح، فقد كانت تُحبُّك كثيراً، يا ماري! وكانت تحترمك وأملك. هيّا! هل تبكين؟ انظري يا بُنتي، أنا لا أريد أن أبكي، أنا...

ومع ذلك، فأنت تبكي يا جرمان! ولاتزال تبكي! وما العار في أن يبكي رجلٌ زوجته؟ لا تبتئس، هيّا! فأنا أشاطرك هذه المحنة!

· قلبك عامرٌ بالطيب يا ماري، ويُريحي أن أبكي معك. إنما قرّبي قدّيتك من النار. فتتورتك مبللة كلّها أيضاً، أيتها الصغيرة الطيبة! تعالي، سأخذ مكانك بجانب الصغير، دفّني نفسك بطريقة أحسن من هذه.

- أنا لا أشعر بالبرد، قالت ماري، وإذا أردت الجلوس خذ طرفاً من المعطف، أما أنا، فمرتاحة جداً هكذا.

- الحقيقة أن وَضَعْنَا ليس سيئاً هنا، قال جرمان وهو يجلس بجانبها. لا يضايقني قليلاً إلا الجوع، إنها التاسعة مساءً، وقد عانيت الكثير وأنا أقطع هذه الطرقات الرديئة. إلى درجة أنني أشعر بضغفرو عام. هل أنتِ غير جائعة أيضاً يا ماري؟

- أنا؟ لا أبداً. لستُ متعودّة مثلك على أكل أربع وجبات، وقد نمت كثيراً من الليالي دون عشاء، ولن يُدهشني أن تُضاف إليها ليلة أخرى.

- طيّب، إنَّ امرأة مثلك امرأة مريحة، لا تُبذّر المصروف، قال جرمان مُبتسماً.

- أنا لستُ امرأة. تقول ماري بسذاجة، دون أن تُدرك المواربة التي تتخيّلها أفكار الفلاح. هل تحلم؟

- نعم، أظنّ أنّي أحلم، أجاب جرمان، ربّما الجوع هو الذي يجعلني أهذي!

- كم أنت شرّة إذا استأنفت كلامها مُبتهجة قليلاً بذورها. طيّب! إن كنت لا تستطيع أن تبقى خمس أو ست ساعات دون طعام، أليس معك طرائد في جُعبتك، وعندك نار لِتَشويها؟

- يَاللّٰشيطان! فكرة ممتازة! لكنّ الطرائد لِحَمِّوِ للمستقبل؟

- مَعَكَ بيْتَةُ طيورٍ حجل، وأرنب! ولا أعتقد أنك بِحاجة ذلك كلّه لِتَشْبِع؟

· لكن إذا شوينا منها هنا من غير مشواة، ولا سَفُود، ستحوّل إلى فحم.

· قالت ماري، لا، أبداً، سأشويها لك تحت الرماد دون أن يكون فيها طعم الدخان، أَلَمْ تَضْطَظْ في حياتك قُبُراتٍ من الحقول، وتشويها بين حَخْرَيْن؟ آه! حقاً أنا أنسى أنك لم تكن راعياً هَيّاء، انتفُ ريش طائر الحَجَل هذا ليس بعنفرٍ هكذا، ستسلخ جلده!

· هل تستطيعين نَتْفَ الحجلة الأخرى لِأرى كيف! -تريد إذا أن تأكل اثنتين؟ يا لَك من عُول! هَيّا نِئاً، انتهى نَتْفُهُما، سأشويهما.

- ستكونين قِيمةً مطعم ممتازة يا ماري، لكن للأسف ليس لديك صندوق مشروبات، وسأتنازل وأشرب من ماء هذه الرامة.

- أَكُنْتُ تريد نبيذاً، هذا غير صحيح! وربما لِرِمْتُكَ القهوة؟ أَوْ تعتقد أَنَّكَ في السوق تحت الخيمة؟ ادْعُ صاحبة الفندق: هَيَّا أحضري مشروباً روحياً إِفْلَاحٌ "بولير" الماهر!

- آه ! أنسخرين مِنِّي أَيُّهَا الملعونة الصغيرة؟ ألا تشربين النبيذ، أنت، إذا توفر لك؟

-- أنا؟ شَرِبْتُهُ معك عند السيِّدة "روبيك"، للمرَّة الثانية في حياتي، لكن لو كُنْتُ رزينا، سأقدِّم لك زجاجة نبيذٍ مليئة تقريباً ومن النبيذ الممتاز، فما قَوْلُكَ!
- كيف يا ماري! إنَّكَ إذاً ساحرة، حتماً؟

- ألم تكن مجنوناً، وتطلب زُجَاجَتِي نَيْبُذ عند السيِّدة "روبيك"؟ شَرِبْتُ واحدةً مع ابنك، وأخذتُ أنا غضباً عني ثلاث جرعات ممَّا وضعتهُ أمامي، ومع ذلك دفعتَ أنتَ لمن الزجَاجَتَيْنِ دون أن تراهما.

- طَيِّب، وبعد؟

-- وبعد، وضعتُ في حقيبي الزجاجة غير المشروبة، لأنني فكّرتُ بِأنّك
قد تعطش على الطريق أنت أو ابنك، وها هي معي.

- أنتِ البنت الأكثر تيقظاً لِبقيّتها في حياتي.

كانت تيكّي وهي تخرج من المطعم. ولم يمنعها ذلك من التفكير
بالآخرين أكثر مما تفكّر بنفسها، أيتها الصغيرة ماري، إن الرجل الذي
سيتزوّج منك لن يكون أبله.

أرجو ذلك، لأنني لا أتمنى رجلاً أبله. هيا، كُلْ حَجلتيك، فهما
طريّتان، ولعلّهم وجود الخبز سوف تكتفي بالكسثناء.

ومن أين حصلت على الكسثناء يا شيطانة؟

هذا مُدهشٌ حقاً فطُول الطريق وأنا أقطف الكسثناء من الأغصان التي
نمرُ تحتها، وقد ملأتُ جيوبي منها.

والكسثناء مشويّة أيضاً؟

إذاً كيف ساكون ذكية إذا أنا لم أضعها في النار فوّر إشعالها؟ هذا
يحدثُ دائماً في الحقول.

- آه، يا ماري الصغيرة، سنتعشى سوياً سأشرب نخب صيحتك، متمنياً
لك زوجاً طيباً... كما تودّين أنتِ أن يكون. حنّدي لي ملاحظه قليلاً!

- أنا عاجزة عن ذلك تماماً، يا جرمان، لأنني لم أفكرّ بالزواج بعد.

- كيف، قطعاً أبداً؟ يقول جرمان، وهو يبدأ الأكل بشهية فلاح، إنما
يتترع أفضل قطع اللحم ليقدّمها لإزيفيته التي رفضتها بعناد، واكتفت ببعض ثمار
الكستناء. واستأنف كلامه وهو يلاحظ أنها لم تكن تفكرّ بالجواب على
سؤاله: قولي لي إذا، لم تراودك فكرة الزواج بعد، مع أنك في السنّ المناسب!

- قالت، رُبّما، لكنني فقيرة جداً. يلزمني على الأقلّ مائة فلس، لِدخول
بيت الزوجية، وعليّ أن أعمل خمس أو ست سنوات لتحصيلها.

- يا لك من بنت مسكينة! أتمنى لو يُعطيني الأب مائة فلس
لأقدّمها لك هدية.

لك الشكرُ الجزيل، يا جرمان، حسناً، وماذا عمّا قد يُقال عنيّ؟

-ماذا تُريدن أن يُقال؟ كلّ الناس يعرفون أنني عجوز، ولا أستطيع أن
أتزوّجك، إذا، قد لا يفترضون أنني... وأنتك...

- قالت ماري، انتبه إذا أيها الفلاح! ها هو ابنك يفيق من نومه.

الفصل التاسع

طلةُ العشاء

نهض الصغير يبير ينظر حوله بهيئة متألمة "قال جرمان، أوه! لا يفيق هذا الطفل إلا عندما يسمع بالأكل! أصوات المدفع لا توقظه، ولكننا عندما نحرك فكينا بجانبه، يفتح عينيه فوراً .

-أكيد كنت مثله عندما كنت في مثل سنّه. قالت ماري مع ابتسامة مكرة.
هيا، يا صغيري يبير، هل تبحث عن سماء سريرك^(١) ، إنها مصنوعة من الخُضرة هذه الليلة، يا صغيري؛ لكن والدك لا يتعشى حصّتك، كنت متأكدة أنك ستُطالب بها.

- صرخ الفلاح: ماري، أريد أن تأكلي. لن أكل ثانية، أنا شرّة وفظّ :
وأنت تحرمين نفسك من أجلنا، ليس هذا عدلاً، أنا خجلان من ذلك. أنظري،
هذا الأمر سيّء جوعي، ولا أريد أن يتعشى ولدي إذا أنت لم تتعشى.

(١) سماء السرير يزيّن سقف الغرفة، وهو عبارة عن ستائر معلقة بالإطار الخشبي للسقف.

اتركنا مرتاحين، أجابت الصغيرة ماري، فأنت لائملك مفتاح شهيتنا.
شهيتي أنا مغلقة اليوم، إنما شهية ابنك مفتوحة كشهية ذئب صغير. أنظر كيف
ياكل! أوه! سوف يكون فلاحاً صلباً !

الواقع أن الصغير يبرر كان يُظهرُ ابنٌ مَنْ يكون، فما كاد يفيق حتى شرع
يلتهم الطعام دون أن يعرف لا أين كان، ولا كيف وصل إلى المكان الموجود
فيه. وعندما شبع وجد نفسه مُثاراً بالأسئلة كما يحصل للأطفال الذين يخرجون
عن طورهم، فزادت نباهته، وفضوله، ونحاكُمته عمّا هو مُعتاد. تساءل أين
هو، ولمّا عرف أنّه وسط غابة، اعتراه قليلٌ من الخوف. سأل والده: "هل توجد
حيوانات شريرة في هذه الغابة؟"

-لا، أشار الأب، إنها غير موجودة أبداً. لا تُخش شيئاً.

.. إذاً لقد كذبت عليّ عندما قلت لي إذا ذهبتُ معك إلى الغابة الكبيرة،
سيخطفني الذئب.

سهل تلاحظين هذا المُخادِل؟ يقول جرمان مُنزعجاً.

-معه حقّ، تجيب ماري، لقد قلت له ذلك: ذاكِرتُه قويّة، ويتذكّر
ماقلت. لكن اعلم، يا صغيري يبرر أن أباك لا يكذب أبداً. عندما اجترنا الغابة

الكبيرة كنت نائماً، والآن نحن في الغابة الصغيرة التي لا توجد فيها حيوانات
شريرة.

-هل الغابة الصغيرة بعيدة كثيراً عن الغابة الكبيرة؟

- بعيدة بما يكفي، ومن جهة ثانية اللدئاب لا تخرج من الغابة الكبيرة. ثم
إنها إذا جاءت منها إلى هنا، فسوف يقتلها أبوك.

-وأنت أيضاً، ياماري الصغيرة؟

-ونحن أيضاً، لأنك قد تساعدنا، ياصغيري بيري؟ أنت لا تخاف؟ سوف
تضربها على ظهورها بقوة.

-نعم، نعم، قال الطفل يتفائثر، وهو يتخذ وضعاً بطولياً: سنقتلها .

-- قال لها جرمان: لا يوجد أحدٌ مثلك ليكلم الأطفال، ولجعلهم يعقلون،
حقيقي أنك كنت طفلة منذ زمن غير بعيد، وتذكّرين ما كانت تقوله لك
أمك. أعتقد جازماً أن المرء كلما كان شاباً أكثر، يستطيع أن يفهم مع
الأطفال أكثر. وخوفي كبير من امرأة في الثلاثين من عمرها، لا تزال تجهل معنى
أن تكون أمّاً، لا تفهم إلا بصعوبة كيف تناغي طفلاً أو تفهم معه.

-ولمَ إذًا يا جرمان؟ لست أعرف السبب الذي يجعل في رأسك فكرة سيئة عن هذه المرأة، هل تعود من عندها؟

-إتذهب المرأة إلى الجحيم! يقول جرمان. أوْدُ أن كون راجعاً من عندها كي لا أعود إليها أبداً. وما حاجتي بامرأة لا أعرفها؟

-قال الطفل: إذًا لماذا تتكلّم عن زوجتك دوماً اليوم، ألاّنها ماتت؟...

-يالأسف! لم تنسَ أمك المسكينة الغالية إذًا؟

- لا، لأنني رأيتها موضوعة في صندوق جميل من خشب أبيض، ولأنّ جدتي قادّني بالقرب منها لتقبيلها، ولأقول لها وداعاً كانت بيضاء كثيراً، وجسمها بارد، وكل مساء تجعلني عمّي أصلي للرب كي تذهب أمي وتتدفأ معه في السماء. هل تعتقد أنها الآن في السماء؟

-أرجو ذلك يا ولدي؛ إنما ينبغي دوماً أن تُصلي، فالصلاة^(١) تجعل أمك ترى كم تُحبّها.

-يجيب الطفل: سأصلي؛ لم أفكر بالصلاة هذا المساء. لكنني لا أعرف أن أصلي وحيداً، دائماً أنسى من الصلاة قليلاً. يجب أن تساعدني ماري.

(١) ربما كان ما تقوله ماري هنا مفروضاً عليها، لأنه كلام الكاتبة الذي بأسف «روزيان» لوجوده في غير مكانه كما يكتب في مقدّمة رواية «لوانسوا لوشاي» لـ «جورج صاند».

-أجل، يا صغيري بير، سأساعدك. تقول الصبية. تعال أركع على ساقَيّ.

ركع الطفل على تنورة ماري، وشبك يديه الصغيرتين، وبدأ يتلو صلاته، بانتباه وثقّ، أولاً، لأنه كان يعرف البداية جيداً؛ ثم يبطء وتردّد ثانياً، وبزّداد ما كانت تقرّنه له ماري كلمةً كلمةً في النهاية، فعندما كان يصل إلى هذا المكان من دعائه حيث يأخذه النعاس كل مساء، لم يستطع أبداً أن يحفظه إلى نهايته. وهذه المرّة أيضاً، ولّد عمل الانتباه، ورتابة صوته الخاص، أثرهما المعتاد؛ فلم يعد يلفظ المقاطع الأخيرة إلا بعد لأي، وبعد أن جعل نفسه يرّدّها ثلاث مرات؛ تناقل رأسه، وارتجى على صدر ماري: انبسطت يدها، وانفلتتا، مسرّختين مفتوحتين على ركبتيه. وعلى بصيص نار المخيم، رأى جرمان ملاك الصغیر نائماً في حضن الصبيّة، التي، وهي تحوطه بذراعيها، وتدفئ شعره الأشقر بأنفاسها الصافية، تركت نفسها أيضاً تسرح مع حلم ورع، وكانت تصلي ذهنياً من أجل روح كاترين.

راح جرمان المتأثر يُفتّش عما يمكن أن يقوله لماري ليعبر عن مقدار الاحترام والامتنان الذي يكتّنه لها، لكنه لم يجد من شيء يوضّح فكرته. اقترب منها ليقبّل ولده الذي كانت لاتزال تحمله مشلوداً على صدرها، وعانى وهو يرفع شفّته عن جبهة بير الصغير.

"أنت تقبله بعنف، تقول ماري وهي تدفع رأس الفلاح برفق، ستوقظه.
اتركني أنيمه من جديد، فهذا هو يعود ثانية إلى أحلام الجنة."

ترك الطفل نفسه ينام، لكنه وهو يتمدد على جلد الماعز الموجود على
السرج، سأل فيما إذا كان على ظهر الصهباء. ثم فتج عينيه الزرقاوين
الواسعتين، وبينما تركهما مثبتتين على الأغصان خلال دقيقة، بدا كما لو أنه
يحلم في اليقظة، أو أنه كان مصدوماً بالفكرة التي خطرت بباله خلال النهار،
وتشككت فيه مع اقتراب النوم. "يا أبي، قال له، إن أردت أن تهبني أمّاً أخرى،
فأنا أريد أن تكون الصغيرة ماري."

ومن دون أن ينتظر جواباً، أغمض عينيه، ونام.

الفصل العاشر

ونحماً عن البزد

لم يظهر على ماري أنها أعارت اهتماماً آخر بالكلام الغريب الذي قاله الطفل إلا من حيث هو برهان على الصداقة؛ لذلك غطّته بعناية، وألهبت النار، ولما لم يكد الضباب الجائثم فوق الرامة يبدو قريباً من الانتشاع، أشارت على جرمان بأن يتخذ مكاناً قرب النار كي ينام.

"أرى أنك غفوت سلفاً؟ تقول له، لأنك لم تعد تنطق بكلمة، وترى الجحمة كما كان يراها صغيرك قبل قليل. هيّا، نَمْ، سأسهر عليكما، أنتَ والطفل.

-بل أنتِ التي ستنامين، أحباب الفلاح، وأنا سأحرُسكما، لأنني لم يسبق لي أبداً الشعور بعدم الرغبة في النوم كالיום، ففي رأسي خمسون فكرة.

- خمسون، هذا كثير، قالت البنية مع شيء من المزاح، وهناك كثير من الناس سيسعدون لو أن لديهم فكرة واحدة فقط^(١)

- طيب، إذا لم أكن حديراً بخمسين، فهناك على الأقل فكرة واحدة لاتبارحني منذ ساعة.
- سأقولها لك، هي والتي كانت في رأسك من قبل.

- حسناً، قولها، إذا كنت تخمينها ياماري، قولها لي بنفسك، فهذا يسرني.

- أجابت: منذ ساعة كانت عندك فكرة الأكل، والان فكرة النوم.

- ياماري، أنا لست إلا راعي أبقار، لكنك فعلاً تعتبريني ثوراً.

أنت بنت حيثة، وأرى جيداً أنك لا تريدين التحدث معي. نامي إذا، فهذا أفضل من نقد رجل ليس منبسطاً.

- إذا أردت التحدث، تحدث، قالت ماري وهي تتمدد قليلاً قرب الطفل سائدة رأسها على السرج. أنت تعاني اضطراباً ياجرمان، وبهذا فانت لا تبدي

(١) ربما كان ما نقله ماري هنا مفروصاً عليها، لأنه كلام الكاتبة الذي يأسف «روتيان» لوجوده في غير مكانه كما يلبث في مقدمة رواية «فرانسو الوشامي» لـ «جورج» صالده.

من الشجاعة ما يُلقي بِرَجُل. فماذا عساي أن أقول، أنا، إذا لم أستطع أن أقاوم
حُزني كما يجب؟

أجل، دون شك، وهذا بالضبط ما يشغلني، يا صغيرتي المسكينة! سوف
تعيشين بعيدة عن أهلك، في بلد ردي من الأراضي البائرة والسُّبُحات، حيث
تستصايبن بِمُحَمَّات الخريف التي لا تنجو منها الحيوانات المكسورة بالصوف، ثمّا
يزيد دوماً أحزان راعية مخلفة؛ وستكونين في النهاية وسط أناس غرباء قد
لا يكونون حَسْبِي المعاملة معك، ولن يُقدِّروا قِيَمَتَكَ. تصوّري أن قول ذلك
يزيد من قلقي، وعندي رغبة في أن أعيدك إلى أُمِّك بدل الذهاب إلى فورش^(١)

-أنت تتكلم بطبيب بالغ، لكن دون داع، بإجرماني الطيّب؛ إذ يجب ألا
يكون الإنسان جباناً إزاء أصدقائه، وبدل الحديث عن الجانِب السيء لِخَطِّي،
عليك أن تُبَيِّن لي جانبَه الحسن، كما كنت تفعل عندما كنّا في مطعم السيِّدة
"روبيك".

-وماذا تُريدين! كان يبدو لي الأمر كذلك في تلك اللحظة، والآن يبدو
بشكلٍ آخر. الأحسن أن تُجِدِّي لك زوجاً.

(١) في رواية «قصة حياتي» ج٣ ف٣، تصف جورج صالده منطقة فورش بقولها: « نباتاتها وحيواناتها
أكثر شعوباً وضموراً من نباتات وإثنا وحيواناتها»

-هذا غير ممكن يا جرمان، وقد بيّنته لك، وإذا كان غير ممكن، فأنا لا أفكر فيه.

- لكن فيما لو وُجدَ هذا الزوج في النهاية؟ إذا قلت لي كيف تتمنين أن يكون، ربما أتوصل إلى تخيل شخصٍ ما.

-التخيل لا يعني الإيجاد، وأنا لا أتخيل شيئاً لأن هذا عديم الفائدة.

-ألست تفكرين بالزواج من رجلٍ غني؟

-لا، طبعاً، لأنني فقيرة مثل "أيوب" (١).

-لكن إذا كان ميسور الحال، فلا يُزعجك أن تسكني مسكناً رخيصاً، وأن تكون تغذيتك جيّدة، ولباسك جديداً وسط عائلة أفرادها طيّبون يسمحون لك أن تساعد أهلك.

-أوه! من أجل هذا، نعم! فكل أمنيّتي أن أساعد أمي.

-وإذا أمكن أن تلاقى هذا الوضع، والزوج ليس شاباً في مستقبل العمر بطبيعة الحال، فلن تتشددِي كثيراً.

(١) جاء باسمه سفر كامل من أسفار العهد القديم، يحكي أنه الفقير بعد غنى وقوّة. وقد أحاطه الله بالآلام ليمتحنه، فصير وهو يبارك الأيادي التي تؤذيّه.

آه! ساعني يا حرمات. هذا بالضبط ما أتمسك به، فانا لا أتمنى زوجا
عجوزاً.

-عجوز، دون شك لن تمنّيه، إنّما رجل في عمري مثلاً؟

-عمرك عجوز بالنسبة لي، يا جرمان، أحبّد عمر باستيان، مع أن باستيان
ليس رجلاً جميلاً مثلك.

-قال جرمان مُتعضباً: أأتمنّي باستيان راعي الخنازير؟ إنه صبي ذو عينيّن
كعيون الحيوانات التي يراها.

-أعوامه الثمانية عشر تجعلني أتغاضى عن عينيه.

شعر جرمان بغيره قاتلة. قال: هيّا، أنا أرى أنّك تميلين إلى باستيان. هذه
فكرة غريبة حقاً!

نعم، ستكوّن فكرة غريبة، أجابت ماري وهي تقهقه، وسيكون زوجاً
غريباً. سأجعله يعتقد بكلّ ما أريد. مثلاً، ذات يوم قطفتُ قرصاً من
البندورة^(١) للسيد الخوري، وقلت لباستيان هذه تفاحة حمراء جميلة، فقرطها
كأنه غول. لو أنّك رأيت أية تكشيرة كمثراً!

(١) لم تكن البندورة عام ١٨٥١ كثيرة الانتشار خارج منطقة وسط فرنسا.

- يا ألهي ما أقبحه!

-أنت لا تُحِبُّنِي إِذَا، لأنَّكَ تسخرين منه؟

-قد لا يكون ذلك سبباً. إنما أنا لا أُحِبُّه: إنَّه فظُّ مع أخته، وَقَلْبِر.

-حسنًا! ألا تشعرين بالارتياح، لِأَحَدٍ آخَرَ؟

-وبأيَّ شيء يَهْمُكَ هذا يا جرمان؟

-لا يَهْمُنِي في شيء، بل قلتُ هذا لِتُحَدِّث. وأنا أرى أيتها البنس الصغيرة، أنك عاشقةٌ سَلْفًا.

-لا، لا، يا جرمان، أنت مخطئ، ليس لديَّ شيءٌ من هذا القبيل حتى

الآن!

ويمكن أن يأتي فيما بعد: لكن لما قرَّرتُ ألا أتزوَّج إلا بعد أن أجمع قليلاً من المال، فأنا عازمة على الزواج متأخرة، ومن رجلٍ عجوز.

-طَيِّب! خذي رجلاً عجوزاً على الفور.

-لا أبداً، فعندما لن أكون شابة، لن يَهْمُنِي الأمر، أمّا الآن فهو مختلف..

-أعرف جيداً، ياماري، أنني لا أروك: هذا واضح كفاية، يقول
جرمان يتحدّ ومن دون أن يَزِنَ كلامه.

لم يُحِبَّ ماري. انحنى جرمان باتجاهها: كانت نائمة، هُزَمَها النومُ وكأنه
صَعَقَها، كما يفعل الأطفال الذين يغفون وهم لا يزالون يتشاءون.

شعر جرمان بالسعادة لأنها لم تنبّه إلى آخرِ مقالته؛ واعترف في داخله
أنّه لم يكن رزيناً أبداً، وأدار لها ظهره كي يتعد عن الانشغال بها، ويُغيّر
موضوع أفكاره. ولكنه حاول جاهداً، فلم يستطع أن ينام، ولا أن يفكر بشيء
آخر غير الذي كان قد قاله للتوّ. دارَ عشرين مرّةً حول النار، ابتعد، وعاد،
وأخيراً، وهو يحسّ بالاحتياج كما لو أنه ابتلع باروداً، استند على الشجرة التي
كانت تُؤوي الطفلين، وتأمّلُهما وهما ينامان. كان يفكر متسائلاً:

"لست أدري لماذا لم ألاحظ سابقاً أن ماري الصغيرة هذه هي أجمل بنت
في البلدا... ليست مورّدة الخدين، لكنّها وجهاً طريّاً كزهرة الأدغال! ما
أظرف فمها، وما أنعم أنفها الصغير... إنها غير طويلة بالقياس إلى عمرها،
لكنها مخلوقة كالسُمّة، وخفيفة الظلّ مثل عصفور البرقش... لا أعرف لماذا
يهتمّ الناس كثيراً عندنا بأن تكون المرأة طويلة، وبدنية، مورّدة... لقد كانت
زوجتي أقرب إلى النحافة، وشاحبة، ومع ذلك كانت تروقي جداً. وهذه
ضعيفة، إنّما صحتّها ليست سيئة، وجيلة الطلعة مثل جدّي أبيض... وكم

يدور مظهرها لطيفاً، وعفيفاً كم نقرأ طيب قلبها في عينيها! حتى عندما يغلقهما النوم! أما عقلها فيفوق عقل غاليتي كاترين، يجب أن أناسبها، ولن أنزعج معها ... إنها مريحة، وحكيمة، وكادحة، ومحبة، وغريبة. ولا أدري ماذا يمكن أن نتمنى أفضل من ذلك... "لكن ما الذي يشغلي بهذا كله؟! استأنف جرمان وهو يحاول أن ينظر باتجاه آخر. حموي لا يرغب أن يسمع كلاماً في هذا الموضوع، وستعاملني العائلة كلها على أنني مجنون!... ومن جهة ثانية، هي نفسها، الطفلة المسكينة، لا تريدني. وتجذبني عجزاً: قالت لي ذلك ... ليست مهتمة، ولما تتخوف من أنها لاتزال بائسة، شقية، لباسها تعيس، تعاني الجوع خلال شهرين أو ثلاثة أشهر من السنة، بهدف أن تسعد قلبها ذات يوم، وتستطيع الزواج ممن يحلو لها ...! معها حق! ربما فعلت الشيء ذاته لو كنت مكانها ...، وإذا استطعت أن أتبع إرادتي، منذ الآن، فسوف أختار بتاً على مزاجي بدل ان أحشر نفسي في زواج لا يواتيني.

كان جرمان كلما بحث أكثر عن العقلنة وتهدة نفسه ، قلتُ قُرْصُ وصوله إلى نتيجة. كان يتعد عشرين خطوة عن مكانه، ويلوب في الضباب؛ ثم يجد نفسه، فجأة، راکعاً على ركبتيه بجانب طفلين نائمين. وأراد، ذات مرة أن يقبل صغيره بير، الذي كانت يده تلتف حول عنق ماري، فلم يتمكن؛ لأن ماري أحسّت بنفسها ساخن كالنار يهب على شفيتها، فاستيقظت، ونظرت إليه بهيئة مذعورة، ولم تفهم شيئاً على الإطلاق مما يدور في داخله.

"لم أَكُنْ أَرَاكَ، يا طفليّ البائس! يقول جرمان وهو ينسحب بسرعة.
كَبِدَتْ أقع عليكما، وأسبب لكما الأذى."

كان ماري من سلامة النية ما جعلها تصدقه، وتنام من جديد. فعبر
جرمان إلى الطرف الآخر للموقد، وأقسم بالله أنه لن يتحرك من مكانه حتى
تكون قد استيقظت. ووفى بوعده، لكن ليس دون معاناة، لقد اعتقد أنه
سيصبح مجنوناً.

وأخيراً، حوالي منتصف الليل، انقشع الضباب، واستطاع جرمان أن
يشاهد لمعان النجوم عبر الأشجار. وتحرّر القمر أيضاً من الأجرة التي كانت
تجذبه، وبدأ ينثر اللآلئ على الزبد الرطب. وبقي جذع السنديانة في ظلمة
جليلة، بينما كانت تبدو سيقان شجيرات البتولا، على مقربة منهما، كصف
من الأشباح المكفنة. وكانت النار تنعكس في الرامة، وكانت الضفادع التي
بدأت تعتاد انعكاسها، تُحازف بنقيقٍ متقطع حيي. والأغصان الحادة للأشجار
العتيقة المحفوفة بالأعشاب المصفرة تمتد وتتقاطع فوق مسافرينا كأيدٍ طويلة
شديدة النحول. لقد كان مكاناً جميلاً، لكنه مهجور وكيب إلى حد أن
جرمان، المضني من المعاناة فيه، بدأ يغني، ويرمي حجارة في الماء كي يتغلب
على الضجر الرهيب للوحشة. كان يتمنى أن يوقظ ماري؛ ولما رآها تنهض
وتراقب وتحسّس الوقت، اقترح عليها استئناف المسير.

"قال لها: خلال ساعتين اقترابُ الفجر سيجعل الهواء قارساً حيث لن نستطيع البقاء هنا على الرغم من نارنا هذه ... الآن علينا أن نتصرف، وسوف نجد بيتاً يفتح لنا، أو على الأقل بعض مخازن الحبوب التي تمكننا من قضاء بقية الليل تحت سقفها."

لم يكن لماري أن تختار، وعلى الرغم من أنها كانت لاتزال عندها رغبة عارمة في النوم، أجبرت نفسها على اتباع رأي جرمان.

ويحمل جرمان ابنه بين ذراعيه دون أن يوقظه، جاعلاً ماري تقترب منه لتحتفي تحت معطفه، لأنها لم توافق على سحب عباءتها التي تحيط بجسد الصغير بير .

ولما شعر جرمان أن الصبية تكاد تلامسه، بدأ يفقد صوابه بعد أن كان مبتهجاً وشارداً لبعض الوقت. ابتعد مرتين أو ثلاث مرّات بصورة مفاجئة، وتركها تمشي وحيدة. وكان ، وهو يرى أنها لاتلحق به إلا بصعوبة، ينتظرها، ويجذبها بعنف إلى جانبه، ويضعها بقوة أدهشتها، وزادتها غضباً منه، دون أن تجرؤ على مكاشفته بذلك.

ويحكم أنهم لم يكونوا يعرفون في أي اتجاه يسرون، ولا أية طريق يسلكون، مع أنهم يصعدون في الغابة مرّة أخرى، وجدوا أنفسهم من جديد،

وهم في مقابل الراح المنعزلة، يعودون على أعقابهم، وبعد أن داروا وساروا
مدة طويلة، لاحظوا الضوء عبر أغصان الأشجار.

- "حسنًا! هاهو بيت، قال جرمان، وأناس لا يزالون سهرانين لأن النار
مشتعلة. الوقت متأخر جداً إذاً؟"

لم يكن ذلك منزلاً: إنها النار التي غطوها عند ذهابهم، وعادت
فتأججت من جديد. لقد مشوا ساعتين ليعودوا إلى نقطة الانطلاق.

الفصل الحادي عشر

في العراء

-أما مشروع الزواج فأننا اتخلى عنه! قال جرمان وهو يضرب قدمه بالأرض. لقد ألقى علينا أذى من السحر. هذا أكيد، ولن نخرج من هنا حتى طلوع النهار. يجب أن يكون هذا المكان مسكوناً بالشياطين .
-قالت ماري: هيا بنا، هيا بنا، فلندع الغضب ، ولنتخذ لنا مكاناً هنا. سنشعل ناراً أقوى، فالطفل مغطى جيداً على نحو لا يعرضه لأي خطر، وقضاء ليلة في العراء لن يُمَيِّتَنَا. أين خبأت السرج يا جرمان؟ وَسَطَ العُلَيَّقِ، باللطيش؟ كم هي مريحة استعادته!

-نحذي الطفل احمليه، لأسحب سريره من الدغل، فأننا لا أريد أن تنخزي يديك (بالشوك) .

-انتهى الأمر، ها هو السرير، وبعض الوخيزات ليست طعنات سيف ، أجابت الفتاة الشجاعة.

وشرعت من جديد تنيم الطفل بيب، الذي كان بلغ نومه من العمق حداً جعله لا يحس شيئاً في هذه الرحلة الجديدة. وضع جرمان كثيراً من الخطب في النار حتى إن الغابة أضيئت من حولهم : لكن الصغيرة ماري لم تعد تستطيع المقاومة، ومع أنها لم تكن تشكو من شيء، معادات تقدر أن تقف على رجلها. كانت شاحبة، تصطك أسنانها من البرد والضعف. احتضنها جرمان بين ذراعيه ليدفئها؛ وكان القلق والحنان والعاطفة المتأججة التي لا تقاوم قد أحرسوا حراسه باستيلائهم على قلبه. وتدلّى لسانه كأنه بمعجزة، وتوقف حياؤه، فقال لها: "ياماري، أنت تعجيبني، وأنا متألم جداً لأنني لا أعجبك. فلو قبلت بي زوجاً، فلن يتمكن حمو، ولا أقرباء، ولا حيران، ولا نصائح، أن يمنعوني من أن أهبك نفسي. فأنا عارف أنك ستجعلين أطفالي سعداء، وستعلمينهم كيف يحترمون ذكرى أمهم، وأنا، وقد ارتاح ضميري، أستطيع أن أرضي قلبي. لقد كنت دائماً أكن لك مشاعر الود، والآن أحبك إلى درجة لو طلبت أن أخضع حياتي كلها لألف مشيئة تريدينها لأخضعتها على الفور. أرحوك، انظرني كم أحبك، وخاولي أن تنسي عمري. صدّقي أنها فكرة خاطئة نأخذها لأنفسنا عندما نعتقد أن رجلاً في الثلاثين، يغلو عجوزاً. ومن جهة ثانية، ليس عمري سوى ثمانية وعشرين عاماً! عندنا نخشى بنت صبية أن تجرّ على نفسها الانتقادات إن هي تزوّجت من رجل يزيد لها عشر سنوات أو اثنتا عشرة سنة، لأن ذلك لا يتفق مع عادات البلد، لكنني سمعت أن الناس في منطقة أخرى لم يعودوا يهتمون بهذا، وأنهم، على العكس، يتمنون، من أجل

ضمان البنت، أن يزوجه الصبية لرجل عاقل مقدم بحرب أكثر من ولد يمكن أن يسمى التصرف، ويتحول من مواطن صالح، كما كان يُعتقد إلى صبي فاسد. ثم إن السنين ليست هي دائماً معيار العمر، فالعمر يعتمد على القوة والصحة التي يتمتع بهما الإنسان. فعندما يكون الرجل مهزوماً من كثرة الشغل، والفقر، والسلوك الرديء، نجده عجوزاً قبل الخامسة والعشرين. بينما أنا... لكثك لا تسمعي، يا ماري.

— أجل، يا جرمان، أنا أسمعك، قالت ماري، إنما أفكر بما قالت له لي أمي: فامرأة في الستين من عمرها يجب أن تدب نفسها عندما يكون زوجها في السبعين، أو في الخامسة والسبعين من عمره، لا يعود يقدر على الشغل لإطعامها. يصير عاجزاً، وعليها أن تعتني به في عمر تبدأ معه هي نفسها تشعر بالحاجة الماسة إلى الراحة. وهكذا تنتهي بها الأيام إلى الحصر.

— الأهل على حق في أن يقولوا هذا، وأنا أوافقهم عليه، يا ماري، أجاب جرمان، ولكنهم في النهاية يضحون بفترة الشباب كلها، وهي أجمل فترات العمر، في استبصار ما سيكونون عليه في أرذل العمر، حيث لا يعود مهماً أن ينتهي الإنسان بهذه الطريقة أو تلك. غير أنني لست مُهدداً من خطر الموت جوعاً في شيخوختي. وأنا قادر رأساً على توفير شيء من المال، لأنني، بحكم وجودي مع أهل زوجتي، اشتغل كثيراً، ولا أصرف شيئاً. ومن جهة ثانية لاحظني أنني أحبك حباً عارماً، سوف يمنعني من الشيخوخة. يقال إنه عندما

يكون الرجل سعيداً يحتفظ بشبابه، وأنا أشعر شعوراً تاماً أنني أشعر شباباً من باستيان كي أعشقتك، لأنه لأحبك، فهو أغبي وأصغر من أن يدركك كم أنت جميلة، وطيبة، ومخلوقة لتكوني مطلوبة. هيا يا ماري، لا تمقتيني، فأنا است رجلأ شريراً: لقد أسعدت زوجتي كاترين، وقالت أمام الله وهي على فراش الموت إنها لم تلاقِ مني أبداً سوى الرضى، وطلبت إلي أن أتزوج ثانية. وبظهر أن روحها تكلمت هذا المساء مع طفلها، أثناء لحظة نومه. ألم تسمعي ما كان يقول؟ وكم كان فمه الصغير يرتعش، حينما كانت عيناه تنظران في الفضاء شيئاً لم نستطع رؤيته! كان يرى أمه، نقي تماماً، وكانت هي التي تجعله يقول إنه يريدك أن تحلي محلها.

— أجابت ماري، والدهشة، والشرود بأحدانها: اذني تتكلم بنزاهة، وكل ما تقوله صحيح. وأنا متأكدة من أنني أفعل خيراً بحبك، إذاً أنا لا أزعج أقاربك؛ لكن، ماذا تريدني أن أفعل؟ فقللي لا بتوحش منك. أنا أحبك كشوراً، ومع أن عمرك لا يجعلك قبيحاً، فهو يُخيفني. ويبدو لي أنك تهني بالنسبة لي شيئاً ما، مثل خيال أو عراب، وأن من واجبي أن أحزمك، وأنتك قد تمرر بلحظات تعاملني فيها على أنني بنت صغيرة أكثر من اعشارتي زوجتك، ومثيلتك. وفي النهاية، ربما ستسخر مني رفيقاني، ومع أن التفكير بذلك حاد، اعتقد أنني سأكون حجلة، وحزينة قليلاً يوم عرسى.

- هذه حجج أطفال، لأنك تتكلمين تماماً كلام طفلة، يا ماري.

-قالت: طيب! أنا طفلة، ومن أجل هذا أنا أحشى رجلاً راشداً بإفراط.
وأنت تدرك جيداً أنني صغيرة عليك، لأنك تلومني سلفاً على كلام دون
منطق! وأنا لا أستطيع أن امتلك عقلاً أكبر مما يتطلبه عمري.

-- يا للحسرة! يا إلهي، إذا كم أنا مستحقّ للشفقة لكوني أرعن، وأسيء
التعبير عما أفكر فيه! صرخ جرمان. يا ماري، أنت لا تحيئيني، هذه هي الحقيقة،
فأنت تجدين أنني بسيط، وبطيء الفهم. ولو كنت تحيئيني، قليلاً، لَمَا رأيت
غيوبي بهذا الوضوح. لكنك لا تحيئيني، وها هي القضية!

--حسناً! هذه ليست شططيتي، أجابت، وهي تشعر قليلاً بالإهانة لأنه لم
يعد يداخلها بضمير المفرد^(١)، لقد حاولت قدر المستطاع التفكير بذلك وأنا
أسمعك، لكنني كلما حاولت أكثر، قلت قدرتي على أن أتصور أننا يجب أن
نكون زوجاً وزوجة.

لم يجب جرمان. إنما وضع رأسه بين يديه، وكان يستحيل على الصغيرة
ماري أن تعرف إذا كان ييكي، أو كان حَرِداً، أو نائماً. وداهمها بعض القلق
من رؤيته مكتئباً، ومن عدم قدرتها على تخمين ما كان يدور في رأسه، لكنها

(١) Tutoyer حيث كان يخاطبها بأنت، ثم غير الضمير من (Tu) إلى (Vous).

لم تجرؤ على محادثته زيادة. ولما كانت دهشتها مما قد حصل أبلغ من رغبتها في النوم من حديد، انتظرت الصباح بفارغ الصبر، موجحة النار باستمرار، وساهرة على الطفل الذي كان يبدو أنَّ جرمان لم يعد يتذكره.

ومع هذا، لم يتم جرمان أبداً، إذ لم يكن يفكر بنفسه، ولا بشيء يسليه، ولا بخطة إغراء لماري. كان يعاني، وعلى قلبه جبل من الهموم. يتمنى أن يموت. وبداله أن كل شيء يجب أن يحمل إليه سوءاً، ولو استطاع البكاء لما قَصُر. على أنه كان غاضباً من نفسه، غارقاً في عذابه، يَحْتَنق دون امتلاك القدرة والإرادة على الشكوى.

عندما طلع الصباح، وأعلنت عنه جرمان حركة الأريف، رفع رأسه من بين يديه، ونهض. ورأى أنَّ الصغيرة ماري لم تنم هي الأخرى، إلا أنه لم يعرف ما يقول لها للتعبير عن وحدته. كان مثبط العزيمة. نجباً سرج الصهبياء في الدغل من حديد، وحمل جعبته على كتفه، وأمسك ابنته من يده، وقال لماري: والآن يا ماري سنحاول إنهاء سفرنا. هل تريدان أن أؤضلك إلى مزارع "أورمو"؟

أجابته: - سنخرج من الغابة معاً وحينما نعرف أين نحن، سيذهب كل منا في طريقه.

لم ينجب جرمان. كان مجروح الشعور من كون البنت الصبية لم تطلب منه أن يوصلها إلى مزارع "أورمو" ولم يلاحظ أنه عرض عليها ذلك بلهجة تبدو شحوضة على الرفض.

دلّهم على الطريق حطّاب التقوا به على بعد مائتي خطوة، وقال لهم بعد اجتياز المرعى الكبير لا يبقى عليهما سوى أن يسلك أحدهما الطريق باستقامة، ويتجه الآخر إلى اليسار كي يصل إلى وجهتيهما المختلفتين، اللتين كانتا متجاورتين، أصلاً، إلى درجة أن المرء يرى بوضوح منازل "فورش" من مزارع "أورمو"، ومزارع "أورمو" من "فورش".

وبعد أن شكروا الحطّاب، وتجاوزوه، ناداهم ليسألهم عما إذا كانوا قد أضاعوا فرساً، وقال لهم "وجدت فرساً صهباء جميلة في ساحة بيتي، حيث ربما أجبرتها الذئباب على البحث عن ملجأ. نبحت كلابي طوال الليل، وعند طلوع الصباح، رأيت الفرس في الملجأ، ولا تزال فيه. فهبّا بنا إليها، فإن تذكروا ملائحتها، تأخذوها".

أعطى جرمان سلفاً أوصاف الصهباء، وعاد، بعد اعتقاده أن الفرس فرسه، ليأتي بسرجهما. وعندئذ عرضت عليه الصغيرة ماري أن تقود ابنه معها

إلى مزارع "أورمو" حيث يعود ويأخذه وهو ذاهب إلى "فوررش". قالت: إنه مُتَسَخِّخٌ قليلاً بعد الليلة التي قضيناها. سأنظف ثيابه، وسأغسل وجهه الخلو، وأسرح شعره، وحينما يصير جميلاً، وأنيقاً تستطيع أن تقدمي لزوجك الجديدة.

-أجاب جرمان بحر: ومن قال لك أريد الذهاب إلى "فوررش"؟ قد لا أذهب إليها.

-أجل يا جرمان عليك أن تذهب إليها، وستذهب. أحابت الصبيّة.

-أنتِ مستعجلة عليّ لأتزوج من امرأة أخرى، كي تكودي بالكافة من أني لن أزعجك بعد ذلك؟

-هيا يا جرمان! فلنَدعِ التفكير في هذا: هذه فكرة راودتك خلال الليل، لأن هذه المغامرة اللعينة شوّشت ذهنك قليلاً. والآن يجب أن يعود إليسا عقلك، وأنا أعدك بنيسان ما قلته لي، ويقدم ذكرك لأحد.

-إيه! تحدّثني عنه إن أردت، فأنا لست متعوداً على إنكار كلامي. ما قلته لك كان حقيقة، ونزيهاً، ولا أحصل منه أمام أيّ إنسان.

-نعم، ولكن لو عَلِمْتُ امرأتك لحظة وصولك أنك فكرت بامرأة أخرى، فإن هذا سيجعلها سيئة معك. إذا انتبه إلى الكلام الذي ستقوله الآن؛ لا تنتظر إليّ هذه النظرات أمام كلّ الناس وبطريقة خاصة. فكّر بالأب موريس

الذي يتكبيء على طاعتك له، وسيغضب عليّ إذا منعك من تحقيق إرادته.
نهارك سعيد يا جرمان، سأصطحب الصغير بير معي لإجبارك على الذهاب
إلى "فورش". هذا رهن أحفظ لك به.

-إذا أنت تريد أن تذهب معها؟ قال الفلاح لولده، وهو يراه يتعلّق بيديّ
الصغيرة ماري، ويلحق بها بإصرار.

- نعم يا أبي، أجب الطفل الذي كان قد سمع، وفهم على طريقته ما
قاله أمامه دون حذر. سأذهب مع نَعُومَتِي ماري: وستأتي لتأخذني عندما
ستنتهي من الزواج ثانية، إنما أريد أن تبقى ماري أمّي الصغيرة.

-أترين إنه يريد ذلك بإصرار، هو يريد! قال جرمان للصبيّة. اسمع،
يا صغيري بير، أضاف جرمان، أنا أتمنى، فلتصبح أمّك، ولتبقى معك دائماً؛
إنّها هي التي لا تريد هذا. حاول أن تجعلها توافقك على ما ترفضه لي.

-كن مطمئناً، يا أبي، سأجعلها تقول نعم: فماري تفعل دوماً ما أريد.
ويتعد مع الصبيّة، بينما يبقى جرمان وحيداً، أكثر حزناً، وأكثر تردّداً من
أيّ وقت مضى.

الفصل الثاني عشر

متأنقة^(١) القرية

ومع ذلك، فعندما سَوَّى جرمان ما تركه السَّفَر من فوضى في ثيابه، وطاقم فرسه التي امتطأها بعد أن حدّدوا له طريق "فورش" فكَّر بأنه لم يعد أمامه مجال للتراجع، وأن عليه أن ينسى تلك الليلة المضطربة مثل حلم خطير .

وجد الأب ليونارد على عتبة منزله المطلي بالأبيض، جالساً على مقعد جميل من الخشب المدهون باللون الأخضر القاتم. كانت أمام الباب ستُ درجيات موضوعة على شكل سلّم خارجي، مما يظهر أن قبواً كان تحت البيت ذات يوم. وجدران الحديقة والأرض المخصّصة لزراعة القنب مكوّن من الكلس

(١) La lyonne du village: المثانة امرأة يُطلَب حضورها في الأعياد الريفية لأن غيبتها عنها يعني انعدام المرح والمتعة، وهي غير « الفندورة » التي تريد أن تُبدي أناقتها، وغير « المرأة الحارقة » التي غرقت في القرن التاسع عشر ببحثها عن ألوان اللدائن كلها كما ترى السيّد دو جيرواندان.

الجيول بالرمل. كان منزلاً جميلاً، لا يلزمه إلا القليل كي يُنظرَ إليه على أنه بيتٌ
بورجوازي.

استقبل حَمُوُ المستقبل جرمان، وبعد أن سألَه، خلال خمس دقائق، عن
أخبار السائلة كُلِّها، أضاف الجملة المكرَّسة لِمسألة من نلتقيهم، بتهذيب، عن
الهدف من سفرهم: "أتيت تنزّه هنا إذا؟"

-أجاب الفلاح: أتيت لأراكم، ولأقدّم لكم هذه الهدية المتواضعة من
الطرائد، من طرف الأب موريس، وهو يقول لكم، من جانبه أيضاً، إن عليكم
أن تعرفوا نوايا بحبي إليكم.

.. أه! أه! قال الأب ليونارد ضاحكاً، ومداعباً كرشه الممتلئ، نعم، أنا
أرى، وأسمع وأفهم الموقف! وأضاف وهو يغمز بعطف عينه: لست وحدك من
تقدّم لخطبة ابنتي يابني، ففي الداخل ثلاثة رجال ينتظرون مثلك. أنا من جهتي
لا أردّ طلب أي شخص، ويزعمني كثيراً أن أستعجن أو أستظرف أحداً،
فكلّهم طيّبون. ومع ذلك، وبفضل توصية الأب موريس، وقيمة الأرض التي
تزرعونها، أتمنى أن تكون أنت (الصهر). لكن ابنتي راشدة، وسيّدة تروّيتها، فهي
تتصرّف إذا بحسب قناعتها. ادخل، وعرف بنفسك، وأمل أن تكون الرقم
المطلوب!

-عفوًا، المَعذرة، أجب جِرمَان والدَهشة تصعقه حيث وجد نفسه في زحام أرقام وكان قد حسب أنه سيكون وحيداً، لم أكن أعرف أن لابتكم هذه المؤونة من الخاطبين، ولم آتِ لا نتراعها من الآخرين.

- أجب الأب ليونارد دون أن يتخلّى عن دعايته: إذا كنت تعتقد، بسبب تأخرك في الجيء، أن ابنتي كانت بسائرة، فأنت مخطيء كثيراً، يا بني. فلدى كاترين ما يجذب الراغبين في الزواج، وليس أمامها سوى مشكلة الاختيار. لكن ادخل البيت، أقول لك، ولا تزدّد، إنها امرأة تستحق أن يُتَنازَعَ عليها .

وصرخ وهو يدفع جِرمَان من كتفيه مع ملاطفة قاسية، داخلاً البيت: "هيا، يا كاترين، ها هو خاطبٌ جديد أيضاً!"
هذه الطريقة البشوشة والخشنة في تقديم الفلاح إلى الأرملة، بحضور عشاقها الآخرين، انتهت إلى تشويشه وإزعاجه. شعر بالارتباك، ولبث بضع لحظات لا يجرؤ على النظر إلى الجميلة وبلاطها.

كانت الأرملة "غيران" متناسقة التكوين، ولاتنقصها الطراوة. لكنّ تعبير وجهها، وتبرّجها لم يروقا لجِرمَان من البداية. وكانت هيئتها فائرة، ومُعْتَبَطة بنفسها، وتبدو بشعرها المشبوك بثلاثة صفوف من القماش المخرّم، وصّدّارتها

الحريرية، ولفاعها الأسود من الحرير الخام، متلازمة قليلاً مع فكرة أنها أرملة وقورة وأنيقة.

لقد جعله تأنق لباسها، ولباقاتها المنحّلة، يجدها بشعة وعجوزاً، مع أنها لم تكن لا هذه ولا تلك. فكّر بأنّ زينة بهذا الجمال، ولباقات على هذه الدرجة من البهجة، تناسب عمر الصغيرة ماري وعقلها، غير أن لهذه الأرملة دعابة ثقيلة ووقحة، وتحمل حليها الجميلة دون تميّز.

كان المُعجَبون الثلاثة يجلسون حول مائدة عامرة بالنبيذ وأصناف الطعام، وُضِعَتْ هناك من أجلهم بصورة دائمة، طيلة صبيحة يوم الأحد، لأن الأب ليونارد كان يرغب في إظهار ثرائه، ولم تكن الأرملة منزعة أهدأ من عرض أوانيها الجميلة، ومن تقديم طعامٍ وفير باعتبارها صاحبة دخل. حتى إن جرمان، على بساطته وحذره، لاحظ الأشياء يُنظَرُ ثاقب، ولأول مرّة في حياته انشغل موقف الدفاع عن نفسه برفع الكأس. إذا إن الأب ليونارد أجيره على أن يحتلّ مكاناً بين منافسيه، وعامله، وقد جلس بنفسه قبالته، بوصفه مَحْظِيّه، واهتمّ به بإيثار. فهديّة الطرائد، على الرغم من الفجوة التي أحدثتها فيها جرمان لحسابه الخاص، كانت وفرتها كافية لثوّلد أثرها. وبذت الأرملة مُتأثّرة بالهدية، ونظير الخاطبون إليها نظرة احتقار.

أحسن جرمان بتعكر مزاجه في هذه المشاركة، ولم يكن يأكل عن طيب خاطر، فمازحه الأب ليونارد قائلاً: "أنت حزين، تمرد من كأسك. ينبغي ألا يصد الحب شهيتك، لأن عاشقاً لم يكسّر الصفرة بعد، لا يعرف كيف يجد كلاماً جميلاً كذاك الذي يوضح أفكاره مع جرعة نبيذ". وتحليل جرمان من الافتراض المسبق بأنه عاشق، والهيئة المصطنعة للأرملة التي غصت الطرف مبتسمة، كما يفعل لإنسان واثق من نجاحه، خلقت فيه رغبة الاحتجاج على انكسارها المزعوم، لكنه خاف من أن يبدو غير متحضر، فابتسم ولاذ بالصبر.

وتبين له أن عشاق الأرملة ثلاثة من الرقيقين، لا بد أنهم أغنياء إلى حد يجعلها تقبل تقدّمهم لخطوبتها. عُمر الأول أكثر من أربعين عاماً، كان تقريباً بضخامة الأب ليونارد، وكان الثاني أعور، يعبُّ من الخمرة بقدر ما كان مغبولاً بها، أما الثالث فكان شاباً، على شيء من الوسامة، إنما كان يريد أن يبدو ذكياً، فيقول أشياء سطحية إلى درجة تثير الشفقة. ومع ذلك، كانت الأرملة تضحك لها كما لو أنها مُعجبة بهذه الحماقات كلّها، وهي، بهذا، لم تكن تبرهن على ذوق (رفيع). اعتقد جرمان في البداية أنها هائمة بالفتى، لكنه لاحظ بعد قليل أنه هو نفسه يُلاقى منها تشجيعاً خاصاً، ورغبة في أن يكشف ذاته أكثر. مما هيأ له سبباً ليعتد بنفسه، ويظهر بمظهر أكثر بروداً ووقاراً.

حانت ساعة القدّاس، فنهضوا عن المائدة للذهاب إليه سوية. كان يجب أن يذهبوا إلى "ميرس"، على مسافة فرسخ ونصف من "فورش"، وكان جرمان

تُجِبُّ إِلَى حَدِّ أَنَّهُ تَمَنَّى لَوْ يَتَوَقَّرَ لَهُ الْوَقْتُ لِیَأْخُذَ قَسْطاً مِنَ النَّوْمِ أَوَّلًا، وَلَكِنَّهُ لَمْ يَتَعَوَّدَ عَلَى التَّأَخُّرِ عَنِ الْقُدَّاسِ، وَرَحَلَ مَعَ الْآخَرِينَ.

كَانَتِ الطَّرِيقَاتُ مَغْطَاةً بِالْبَشَرِ، وَالْأَرْمَلَةُ تَمْشِي بِهَيْئَةٍ فَخُورَةٍ، يَحْوَطُهَا خَاطِبُوهَا الثَّلَاثَةُ، تَتَخَطَّرُ رَافِعَةً رَأْسَهَا عَالِيًا وَهِيَ تَسَلِّمُ يَدَهَا تَارَةً لِهَذَا، وَتَارَةً لَذَلِكَ. وَكَانَتْ تَمَنَّى كَثِيرًا لَوْ تُظْهِرَ الْمُعْجَبَ الرَّابِعَ لَعَيُونَ الْمَسَارَّةَ، لَكِنَّ جَرْمَانَ وَجَدَ مِنَ الْغِبَاءِ أَنْ يَنْجَرَّ مَعَ جَمَاعَةٍ مِنَ الرِّجَالِ وَرَاءَ امْرَأَةٍ، هَكَذَا عَلَى مَرَأَى مِنَ النَّاسِ جَمِيعًا، فَاحْتَفَظَ بِمَسَافَةٍ مُنَاسِبَةٍ، وَرَاحَ يَتَحَدَّثُ مَعَ الْأَبِّ لِيُونَارْدَ مُلْتَمِسًا بِذَلِكَ وَسِيلَةَ تَسْلِيٍّ وَتَشْغَلِهِ حَيْثُ لَا يَبْدُوَانِ أَبَدًا أَنَّهُمَا جِزءٌ مِنَ الْجُمُوعَةِ.

الفصل الثالث عشر

السيد

عندما وصلوا إلى القرية، توقفت الأرملة لـتنتظرهما. كانت تريد بتصميم أن تدخل مع مُرافقَيْها كُلّهم، لكنّ جرمان الذي رفض لها هذه الرغبة، ترك الأب ليونارد، واقترب من عدّة أشخاص يعرفهم، ودخل الكنيسة من بابٍ آخر. فاغتاظت منه الأرملة.

بعد القدّاس أبدت انتصارها في كلّ مكان على العشب حيث كان الناس يرقصون، وافتتحت الرقص مع عشاقها الثلاثة الواحد بعد الآخر. ورآها جرمان تفعل ذلك، ووجد أنّها ترقص جيّداً، لكن يتكلّف .

.. قال له الأب ليونارد وهو يربت على كتفه: حسناً لن تدعو ابنتي إلى الرقص إذا؟ فأنت لاتزال شديد الخجل !

-هجرتُ الرقص منذ فقداني لزوجتي، أجاب الفلاح .

-طيب! أن تبحث عن زوجة أخرى، يعني أن الجَدَاد انتهى في القلب،
وعن اللباس.

-ليس هذا عذراً، يا أب ليونارد، ثم إنني أجد نفسي عجوزاً، ولم أعد
أُحِبُّ الرقص.

-أجاب ليونارد وهو يسحبه إلى مكان مُنْعَزِل، اسمع، لقد شَعَرْتُ بالغَيْظ،
وأنت تدخل بيتي، لرؤيتك المكان مُحَاطاً سلفاً بالجالسين. وأنا أرى أنك
حَسَّاسٌ كثيراً، لكن ذلك غير منطقي يا ولدي. فابنتي مُتَعَوِّدة على أن تكون
مُغَازِلَةً، ولا سَيِّما منذ سنتين حيث أنهت جَدَادَها، وليس هي من يُحِبُّ أن
(تُبادر) وتعرض نفسها أمامك.

-ابنتك مُهَيَّاةٌ للزواج منذ سنتين، ولم تَحْتَزْ زوجاً بَعْدُ؟ قال جرمان.
-لا تريد أن تكون مُسْتَعْجِلَةً، وهي على حَقٍّ. ومع أن مظهرها غُنُوج،
وأنها قد تبدو لك غير متَعَقِّلة كما يجب، فهي سَيِّدَةٌ ذات عقل كبير، وتعرف
ماذا تفعل.

-قال جرمان بسداحة، لا يظهر لي ذلك، لأن وراءها ثلاثة مُعْجَبِينَ، ولو
أنها تعرف ما تريد، فقد تُجِدُ اثْنين منهما على الأقل يُعْجَبَانِها، وتُصَلِّي كي
تبقى عندهما!

- ولماذا؟ أنت لاتدرك شيئاً من الحقيقة يا جرمان. فهي لا تريد العجوز ولا الأعرور، ولا الشاب، أنا متأكد تقريباً: لكن لو صرّفتمهم، فسيعتقدون أنها تريد أن تبقى أرملة، ولن يأتيها خطّاب آخرون.

- آه! نعم! هؤلاء يشتغلون دلالين عندها!

- بالضبط كما تقول. وأين العيب في ذلك، إذا كان يناسبهم؟

- لكلّ إنسان ذوقه! قال جرمان.

- أنا أرى أن ذلك قد لا يكون ذوقك. لكن، هيّا بنا، يمكن أن نقتاهم، فعلى افترض أنك المفضّل عندها: قد يُخلّون لك المكان.

- نعم، على افترض! وكم من الوقت عليّ أن أبقى وأنقي في الهواء، أنتظر إمكانية معرفة النتيجة؟

- هذا يعتمد عليك، فيما أظنّ، إن كنت تُجيد الكلام والإقناع. فقد أدركت ابنتي أن أجمل لحظات حياتها، إلى الآن، هي اللحظة التي تترك نفسها فيها للنزول، ولا تشعر أنها تتعطل لتصبح خادمة لرجل، عندما تستطيع قمع عدة رجال. وهكذا، كلما راقّت لها اللعبة، تمكّنت من أن تتسلّى أكثر، لكن فيما لو رُقّت لها أكثر من اللعبة، فمن الممكن إيقاف اللعبة. وعليك ألا تنفّر من ذلك. تعال كلّ يوم أحد، أرّبعها، واجعلها تعرف أنّك انضمت إلى

صفوف المعجَّين، فإذا وجدنا أنك أكثر جاذبية، وتهدياً من الآخرين، فسَنُبين لك ذلك، ذات يوم، دون شك.

- عفواً، يا أب ليونارد، لا ينتك الحقّ في أن تتصرّف كما تشاء، ولا أملكُ سبباً لتوبيخها. فلو كنتُ في مكانها لتصرّفتُ بصورةٍ مختلفة، وطرحت المسألة بصراحة، دون أن أضيع وقت رجالٍ لديهم، دون رُب، شيء يفعلونه أهمّ من الدوران حول امرأة تسخر منهم^(١). لكن، في النهاية، إن كانت تُحْد في ذلك تسليتها وسعادتها، فهذا لا يعني. عليّ فقط أن أقول لك شيئاً يُضايقني قليلاً منذ هذا الصباح أن أصرّح به، على اعتبار أنك بدأتِ بِخُطأ معرفة نواياي من الجيء إليكم، وأنك لم تُعطيني الوقت لأُحييك: رغم أنك تعتقد بما ليس له وجود أبداً. فاعلم إذا أنني لم آتِ إلى هنا بهَدَفٍ طلب ابتكم للزواج، إنما بهَدَفٍ شراء زوج من الثيران يريدون إنزاله إلى السوق الأسبوع القادم، وحموي يظن أنك ستوافقه على ذلك.

- أجاب الأب ليونارد بهدوء تام، فهمت، يا جرمان، لقد غيّرت رأيك وأنت ترى ابنتي مع عشاقها. يبدو أن ما يجذب بعض الناس يصُدّ بعضهم الآخر، ومعك الحق في أن تنسحب طالما أنك لم تتكلّم بعد. وإن كنت تُريد،

(١) جورج صالد تدين غالباً ذلال المرأة، إذ بيّن في رواية «معلّمو التزمير بالقرب» أن عيبت «برنليت» الأوحـد يَكْمُنُ في هذه النقطة.

يجد، أن تشري ثيراني، فتعال لثاها في المرعى، سنحكي في أمرها، وسواء أتم البيع أم لا يتم، ستأتي لتعشّي معنا قبل أن تعود من عندنا .

أجاب جرمان: لأريد أن تزعجوا أنفسكم، ربّما كان لديكم شغل هنا، وأنا أتضايق من رؤية الراقصين دون أن أفعل شيئاً. سأرى ثيرانكم، وسنلتقي في بيتكم بعد قليل.

وهكذا تملّص جرمان، وتوجّه نحو المراعي حيث دُلّه ليونارد، في الواقع، ومن بعيد على جزء من ماشيته. وكان صحيحاً أن الأب موريس كان يريد شراء ثورين منها، وظنّ جرمان أنه فيما لو قاد إليه زوجاً ممتازاً من الثيران يسعّر معتدل، سيحصل على أفضل مُسَامَحة على تخليّته المقصود عن الهدف من سقره.

مشى بسرعة، ووجد نفسه، بعد حين، على مُقَرَّبَةٍ من مزارع "أورمو". ف شعر حينئذٍ بالحاجة إلى تقبيل ولده، وإلى رؤية الصغيرة ماري أيضاً، مع أنه فقد الأمل بها، وطرد من رأسه فكرة أن عليه إسعادها. فكل ما كان قد رآه وسمعه، هذه المرأة الغاوية والثافهة، وهذا الأب الختال والغبي في آنٍ معاً، الذي كان يشجّع ابنته على عادات من العجرفة والالتواء، ورفاه المدن الذي بدا له أنه تمطيم لشرف الأخلاق الريفية، وهذا الوقت الضائع في كلام تافهة عديم الجدوى، وهذه الطويّة المختلفة عن طويته، وعلى الخصوص، هذا الامتناع

العميق الذي يشعر به رجل الحقول عندما يخرج من عاداته الفلاحية، كل ما تحمله جرمان من ضيقٍ وارتباك منذ عدّة ساعات، خلق فيه رغبة في أن يجد نفسه مع ولده وجارته الصغيرة. فمع أنه لم يعد عاشقاً لهذه الأخيرة، كان عليه أن يبحث عنها ليتعزّى بها، وليعيد عقله إلى حاله المعهودة.

لكنه بحث عبثاً في المراعي المجاورة، فلم يجد فيها لا الصغيرة مارى ولا الصغير بيير: مع أن الوقت كان وقت تواجد الرعاة في المراعي. كان ثمة قطيع كبير في أرض باثرة، فطلب إلى صبي يافع، كان ينظر إليه، فيما إذا كان قطيع الخراف تابعاً لإكارة "أورمو". " فقال الصبي: نعم.

-هل أنت راعي الخراف؟ وهل يرعى الصبيان القطعان على حساب الإكارات في منطقتكم؟

-لا، أنا أحرسها اليوم فقط لأن الراعية رحلت: لقد كانت مريضة.

-لكن أليس عندكم راعية جديدة، وصلت هذا الصباح؟

-أوه! نعم! رحلت هي أيضاً.

-كيف رحلت؟ ألم يكن معها طفل؟

-نعم: طفل صغير بكى. لقد مضى على ذهابهما معاً حوالي ساعتين.

-دهابهما إلى أين؟

-من المكان الذي أتيا منه، على ما يظهر. لم أطلب منهما ذلك.

-لكن لماذا ذهباً إذا؟ قال جرمان وهو يزداد قلقاً.

-وَيَ ا وما يُدريني؟

-لم يتفقا على الأجر؟ ومع ذلك كان يجب الاتفاق عليه سلفاً.

-لاأستطيع أن أقول لك شيئاً عن ذلك. رأيتهما يدخلان ويخرجان، وهذا

كل ما رأيت. .

توجّه جرمان إلى المزرعة وسأل المزارعين. ولم يقدر أحد على أن يشرح له ما حدث، إنما كان واضحاً أن الصبيّة، بعد أن تحدّثت مع صاحب المزرعة، ذهبت دون أن تتطّق بكلمة، مصطحبةً الولد الذي كان يبكي.

صرخ جرمان الذي كانت عيناه تقدحان بالشرر: هل عاملوا ولدي معاملة سيئة؟

-إذاً إنّه ابنك؟ كيف كان مع تلك الصغيرة؟ من أين أنت إذا؟ وما الاسم

الذي ندعوك به؟

عندما رأى جرمان أنه سيحجب على أسلته، بحسب عادات تلك البلاد،
بأسئلة أخرى، رَكَلَ الأرضَ بنفاذ صبر، وطلب أن يتحدث إلى سيّد المزرعة .

لم يكن السيّد موجوداً: فليس من عادته أن يبقى طيلة النهار عندما يأتي
إلى المزرعة. لقد ركب حصانه، ولا ندرى إلى أية مزرعة من مزارعه الأخرى
توجّه.

- قال جرمان، وقد صار فريسةً لقلبي كإٍ: لكن، في النهاية، ألم
تستطيعوا معرفة سبب رحيل الصبيّة؟.

تبادل المزارع ابتسامة غريبة مع زوجته، ثم أجاب أنه لا يعرف عن
رحيلها شيئاً، وأن ذلك لا يعنيه. وكل ما استطاع جرمان أن يعرفه، هو أن
ماري وبير ذهبا من جهة فورش. فأسرع إلى فورش: لم تكن الأرملة وعشّاقها
قد عادوا، ولا الأب ليونارد أيضاً. قالت له الخادمة إن بنتاً صبية وولداً جاءا
وسألا عنه، لكنّها، وهي لا تعرفهما، لم تشأ استقبالهما، ونصحتهما بالذهاب
إلى "ميرس".

- قال جرمان باستعلاء: ولماذا رفضت استقبالهما؟ إذا الناس حذرون جداً
في هذه البلاد، حتى إنهم لا يفتحون الباب لجيرانهم؟

-أجابت الخادمة، ويّا في منزلٍ غنيّ كهذا المنزل معنا حقّ في أن نتيقّظ جيّداً. فأنا مسؤولة عن كل شيء في غياب الأسياد، ولا أستطيع أن أفتح الباب لأول القادمين.

قال جرمان: هذه عادة سيّئة، وأتمنى لو أكون فقيراً ولا أعيش هكذا في الخوف. وداعاً، آيتها البنت! وداعاً لبلادكم القذرة!

سأل في البيوت المجاورة. لقد رأى الناس الراعية والطفل. ولما كان الصغير قد ذهب من "بولير" عشوائياً، دون هندام، بسترته الممزقة قليلاً، وعلى جسمه جلد الخروف، ولما كانت الصغيرة ماري، بحكم وضعها، ترتدي لباساً عتيقاً دائماً، فقد اعتبرهما الناس شحاذين. فقدّما لهما الخبز، وقبلت الصبية أن تأخذ قطعة من أجل الولد الذي كان جائعاً، ثم ذهبت على جناح السرعة معه، ودخلا الغابة.

فكّر جرمان لحظة، ثم سأل عما إذا كان صاحب مزارع "أورمو" قد أتى إلى "فورش". أجابوه: نعم، لقد مضى على حصانه بعد لحظات من ذهاب تلك الصغيرة.

-هل ذهب وراءها؟

آه! إذا أنت تعرفه؟ قال له صاحب مقهى المنطقة الذي كان يُوَجِّه إليه الكلام، ضاحكاً. نعم، بالتأكيد، إنه عاهر مُولِعٌ وعلاحة البنات. لكنني لأعتقد أنه لحق بهذه، وإن كان في النهاية، إذا كان قد رآها...

-هذا كافٍ، شكراً! وطار أكثر مما ركض إلى اصطبل ليونارد. وضع السَّرج على الصَّهياء، وقفز فوقه، وذهب بسرعة قصوى باتجاه غابة "سانتلوب".

كان قلبه ينتفض من القلق والغضب، ويجري العرق من جبهته. وأدعى حواصر الفرس، التي لم تكن تطلب الرجاء، وهي ترى نفسها على طريق اصطبلها، كي تعدو بسرعة.

الفصل الرابع عشر

المرأة العجوز

بعد قليل وجد جرمان نفسه في المكان الذي أمضى فيه ليلةً على طرف الرامة. كانت النار لاتزال تبعث الدخان، وكانت امرأة عجوز تلملم بقايا مؤونة الحطب اليابس الذي كانت الصخرة ماري قد كدّسته فيه. توقّف جرمان ليسألها. كانت طرشاء، لذلك قالت له، وهي تخلط تساؤلاته: "نعم، يا ولدي، هنا رامة الشيطان. هذا مكان ملعون، ويجب عدم الاقتراب منه دون رمي ثلاث حجارة فيه باليد اليسرى، مع رسم شارة الصليب باليد اليمنى: فهذا يطرد الأرواح الشريرة. وإلاّ وقعت المصائب على الذين يدورون حول الرامة."

-أنا لا أكلمك عن هذا، قال جرمان وهو يقترب منها صارخاً بأعلى صوته: ألم تشاهدي بنتاً وطفلاً يمرّان في الغابة؟

"-نعم، قالت العجوز، غرق فيها طفل!"

ارتجف جرمان من رأسه حتى قدميه، لكن لحسن الحظ أضافت العجوز:
 " منذ زمن طويل من اليوم، وقد زرعوا صليباً جديلاً لذكرى هذا الحادث، لكن
 الأرواح الشريرة رمته في الماء أثناء ليل عاصف. ويمكن رؤية طرف منه. ولو أن
 إنساناً تعيشاً توقف هنا في الليل، فلن يستطيع، بالتأكيد، أن يخرج منها أبداً قبل
 الصباح. سيمشي كثيراً، ويمشي، ويمكن أن يقطع مائتي فرسخ في الغابة، ويجد
 نفسه دائماً في المكان ذاته.

انصعق خيال الفلاح رغماً عنه بما كان يسمع، وفكرة المصيبة التي يجب
 أن تحصل لتنتهي إلى ترسيخ توكيدات المرأة العجوز، استحوذت على فكره
 استحوذاً كاملاً، حتى شعر ببرودة تحتاج جسمه. ولما يقس من الحصول على
 معلومات أخرى، امتطى فرسه من حديد، واستأنف الدوران في الغابة مُنادياً
 بيبير بكل ما أوتي من قوة، وصافراً، مُفرقاً كرباجه، ومكسراً الأغصان كي
 يملأ الغابة بضجيج مسيره فيها، ومستمعاً بعد ذلك ليعرف إذا كان صوت ما
 يُجيبه، لكنه لم يكن يسمع سوى أجراس البقرات المنتشرة بين الأشجار
 المقطوعة، والصرخات الوحشية للخنازير التي كانت تتعارك على ثمار البلوط
 الساقطة على الأرض.

وأخيراً سمع جرمان وراءه حركة حصان كان يتبع أثره، وعليه رجُل
 كهل، أسمر ضخم، يرتدي لباس برجوازي متوسط، ناداه ليتوقف. ولم يكن

جرمان قد رأى صاحب مزارع "أورمو"، لكنّ غريزة هائجة جعلته يحكم على الفور أنه هو. فعاد باتجاهه، ورازه من القدمين إلى الذؤابة، وانتظر ما كان عنده من كلام يقوله له.

ألم ترّ صبيّة في الخامسة أو السادسة عشرة، مع صبي صغير يجرّان من هنا؟ قال صاحب المزرعة مصطنعاً هيئة غير المكتث، مع أن اضطرابه كان ظاهراً بوضوح.

-وماذا تريد منها؟ أجاب جرمان دون أن يبحث عن إخفاء غضبه .

--بإمكاني القول لك: هذا لايعنيك، يا صاحبي لكنّ لما لم يكن عندي سبب لإخفاء الحقيقة، أقول لك إنها راعية كنت قد استأجرتها هذه السنة دون أن أعرفها... وحينما رأيتهما عند وصولها، بدت لي أصغر، وأضعف من أن تعمل في المزرعة. فشكرتها، إنما كنت أريد أن أدفع لها مصاريف سفرتها القصيرة، وبينما أدتُ ظهري، ذهبت غاضبة... لقد استعجلتُ كثيراً، حتى إنّها نسيّت بعض أغراضها، ونسيّت أجرة التي لا تستأهل شيئاً يُذكر، بالتأكيد، ربّما بعض القروش... وفي النهاية، لما كان عليّ المرور من هنا، فكّرتُ في ملاقاتها هنا لأردّها ما نسيتهُ، ولأدفع لها ما يتوجب عليّ.

كانت طويّة جرمان أنزه من أن تجعله لايزدّد في سماع هذه القصّة التي إن لم تقرب جدّاً من الحقيقة، فهي على الأقلّ ممكنة. كان يُلقى نظرة ثاقبة على صاحب المزرعة وهو يدعم هذا التقصّي بكثير من الوقاحة أو الخجل.

"أريد أن يكون قلبي صافياً لزاءه"، حدّث جرمان نفسه، وهو يكظم احتقاره. قال: هذه بنت من عندنا، وأنا أعرفها: يجب أن تكون في هذه الناحية... فلنقدّم سويرة... وسوف نجدها دون شك .

سمعك حق، قال صاحب المزرعة. لنقدّم... ومع ذلك، إذا نحن لم نرها في آخر هذا المسلك، سأتخلّى عن البحث عنها... لأنّ عليّ أن أجد طريقاً أردانت.

-أوه! فكّر الفلاح، لن أتركك! طبعاً يجب أن أدور معك خلال أربع وعشرين ساعة حول رامة الشيطان!

-انتظرا قال جرمان فُجاءة وهو يثبّت عينيه على نبتة وزّال^(١) تهتزّ بشكل لافت للنظر: هولاهولاهولا الصغير يبي، أهذا أنت يا ولدي؟

(١) الرّزّال (Genets) جنبة صلفاء الزهر من فصيلة القرنيات الفراضية.

-عندما ميّز الولد صوت أبيه، خرج من جفنة الوزّال قافراً كالأيل، لكن ما إن رآه بصحبة صاحب المرعة، حتى توقف كالمدعور، وبقي مُرتاباً.

- تعال يا بني تعال، هذا أنا! صاح الفلاح وهو يركض وراءه، نازلاً عن ظهر فرسه ليأخذه بين ذراعيه: وأين الصغيرة ماري؟

-إنها هناك، مخبئة، لأنها خائفة من هذا الرجل الأسود اللثيم، وأنا خائف منه أيضاً .

-إيه! كن هادئاً، أنا هنا... يا ماري! ماري! هذا أنا . !

اقتربت ماري زاحفةً، وما إن رأت جرمان، وصاحب المزرعة يتبعه عن قُرب، حتى هرعت وألقت بنفسها في حضن جرمان، وتعلّقت به كما تتعلّق البنت بأبيها: " آه، يا جرمانى الشجاع، قالت له، سوف تُدافع عني، فأنا لا أخاف معلق".

اقشعر جسد جرمان. نظر إلى ماري: كانت شاحبةً، مزّقت الأشواك ثيابها حيث كانت تجري باحثة عن دِغْل (تختبيء فيه)، مثل ظليّة يُطاردها الصيادون. إنما لم يكن على وجهها عارٌ ولا يأس .

قال لها وهو لا يزال يراقب ملامح صاحب المزرعة: سيّدك يريد أن يتكلّم معك.

-سيّدي؟ قالت بكبرياء، هذا الرجل ليس سيّدي يا جرمان... أريد أن تعيدني معك، وسوف أخدمك دون مقابل. !

كان صاحب المزرعة قد تقدّم، متصنعاً قليلاً نفاذ الصبر. قال: ايه! أيّتها الصغيرة، لقد نسيتِ عندنا شيئاً أحمله إليك.

-أجابت الصغيرة ماري: لا، يا سيّد، لم أنس شيئاً ولا أطلبك بشيء.

-اسمعي قليلاً، أجاب صاحب المزرعة، عندي ما أقوله لك، أنا... هيا... لا تخافي... كلمتان فقط...

-يمكن أن تقولهما بصوتٍ عالٍ... لا أسرار لي معك.

-تعالِ خُذي نقودك، على الأقلّ.

-نقودي؟ أنت لست مدنياً لي بشيء، والحمد لله!

كنت أشك بذلك كثيراً، قال جرمان بصوتٍ خفيض، لكن هذا عدل، يا ماري... اسمعي ما عنده من قولٍ لك... لأنّ عندي فضولاً لمعرفة ما

سيقول. وستقوليه لي فيما بعد، فلديّ أسباب تستدعي ذلك. اقتربي من حصانه... لن أرفع نظري عنك. .

خَطَّتْ ماري ثلاث خطوات باتجاه صاحب المزرعة الذي قال لها وهو ينحني على قربوس سرجه خافضاً صوته: " أيتها الصغيرة، خذي ها هي ليرة ذهبية... من أجلك! لن تقولي شيئاً، هل تسمعين؟ سوف أقول إنني وجدتكَ غير قادرة على العمل في مزرعتي... وَلَنْتُ هذه المسألة... سأمرُّ ثانية على بيتكم ذات يوم، وإن لم تقولي شيئاً، سأعطيك أيضاً شيئاً ما... ثم، إذا كنت أكثر تعقلاً، ليس عليك إلا أَنْ تطلعي: سأصطحبك ثانية إلى بيتي، أو بالأحرى سأذهب للتحدث معك في المراعي عند حلول الليل. أية هدية تريدن أن أجلبها لك؟

- هاهي، يا سيّد، الهدية التي أقدمها لك، أنا! أجابت ماري بصوت مرتفع، وهي ترمي الليرة الذهبية في وجهه، وبقسوة أيضاً. أشكرك كثيراً، وأرجوك أن تخبرني عندما ستمرُّ إلى بيتنا ثانية: إذ سيأتي كل صبيان ناحيتنا لاستقبالك؛ لأن الناس عندنا يحبّون بعمق البورجوازيين الذين يخترعون الحكايات عن البنات الفقيرات! سوف ترى هذا، وسوف نكون بانتظارك.

.. أنت كاذبة، وحمقاء اللسان! قال صاحب المزرعة مغتاضاً، وهو يرفع
عصاه علامةً على التهديد. تريدان أن تجعلي الناس يعتقدون بشيء لم يوجد
إطلاقاً. لكن أنتِ لن تبتزني: فأنا أعرف مثيلتك. !

كانت ماري قد تراجعت مذعورة؛ لكن جرمان كان قد انقضَّ على
رَسَنِ حصان صاحب المزرعة، وقال وهو يهزه بعنف: "هذا واضح الآن. نحن
نرى السبب الذي جعله يعود ... أنزل؛ يا صاحبي! انزل! لتحدّث نحن
الاثنين."!

لم يكن صاحب المزرعة متوجّساً من كسب الجولة: فوخز حصانه
ليهرب، وأراد أن يضرب بعضاه يديّ الفلاح ليُجبره على ترك الرَسَنِ؛ لكنّ
جرمان حاد عن الضربة، ولما أمسك صاحب المزرعة من رجله، أنزله عن
حصانه، وأسقطه على نباتات السرخس حيث طرحه أرضاً، مع أن صاحب
المزرعة وقف على قدميه، ودافع عن نفسه بضراوة. وعندما بُتّه جرمان تحته
قال له: "أيها الرجل الخسيس! أستطيع أن أقضي عليك بضربة واحدة لو
أردتُ. لكنني لا أحبّ فعل الشر؛ ومن جهة ثانية، لن يُهذّب ضميرك أيُّ
إصلاح ... ومع ذلك لن تتحرّك من هنا قبل أن تطلب العفو من هذه الصبيّة
وأنت راكع على ركبتك."

كان صاحب المزرعة الذي يعرف هذا النوع من قضايا تنافس رَجُلَيْنِ على امرأة، يريد أن يأخذ الموضوع بالمزاج. فادّعى أن خطيئته لم تكن كبيرة؛ لأنه لم يُلحَ عليها إلا بالكلام، وأنه كان يريد أن يعتذر؛ بشرط أن يقبل البنت، وأن يذهبوا ليشربوا معه جرعة نبيذ في أقرب حانة، وأن يفرقوا وهم أصدقاء.

- "أنت تزعجني أجا به جرمان وهو يمرغ وجهه بالتراب، وأنا مستعجل كي لا أعود وأرى طلعتك اللعينة. خُذْ، اخجل إن استطعت، وحاول أن تسلك طريق المخادعين^(١) عند مرورك من ناحيتنا".

والتقط عصا صاحب المزرعة، وكسرها على ركبته ليظهر له قوّة ساعديه، وألقى بِقِطْعِهَا المكسورة بعيداً، وباحقار. وابتعد، ماسكاً ولده بيد، والصغيرة ماري باليد الأخرى، وهو يغلي غيظاً.

(١) طريق المخادعين **Le chemin des affronteux** هي، بِمَسَبَرِ جورج صالد، طريق تفرّع عن الطريق الرئيسة عند مداخل القرى وتوازيها من الخارج. ويُعتقد أن الناس الذي يتوقعون وِزَاكاً يستحقونه يسلكونها لِتُجَنَّبَ أن يراهم أحد.

الفصل الخامس عشر

العودة إلى المزرعة

بعد ربع ساعة اجتازوا الأراضي البائرة. كانت تحبُّ بهم الصهباء على الطريق الرئيسية صاهلة في كلّ مرّة ترى شيئاً تعرفه. وكان الصغير يبرّ يقصّ على أبيه ما استطاع أن يفهمه ممّا حدث.

— عندما وصلنا، جاء، هذا الرجل ليتحدّث مع ماري في الزريبة حيث ذهبنا على الفور لرؤية الخراف الجميلة. أنا صعدت إلى المَنزُودة لألعب، ولم يكن هذا الرجل يراني، عندئذٍ قال لماري صباح الخير، وقبّلها.

— استسلمت للتقبيّل يا ماري؟ قال جرمان وهو يرتعد من الغضب.

— اعتقدت أنها قبلة بريّة، وأنها عادة أبناء المنطقة عند وصول الغرباء، كالعادة، عندهم، حيث تقبّل الجُدّة الصبايا اللواتي يعملن على خدمتها لتبيّن لهنّ أنها تبنّاهنّ، وسوف تكون لهنّ كالأم.

-واستأنف يبهر كلامه، وكان فخوراً بحكاية المغامرة، وعندئذٍ قال لك هذا الرجل كلاماً سيئاً، كلاماً أوصيتني ألا أردده أبداً، وألاً أتذكره: وهكذا نسيته بسرعة. ومع ذلك، إذا أراد والدي أن أقول له ماكان...

-لا، يا ولدي، لا أريد أن أسمع، وأتمنى لو تنساه إلى الأبد .

-- أجاب الطفل، في هذه الحال، سأنساه أيضاً. ثم إن هذا الرجل غَضِبَ عندما قالت له ماري إنها راحلة. قال لها إنه سيعطيها كل ماتريد، مائة فرنك! وماري غضبت أيضاً. وأقبل نحوها كما لو أنه كان يريد إيذاءها. فَنَجَفَتْ، وألقيت بنفسي على ماري وأنا أصرخ. حينئذٍ قال هذا الرجل هكذا: "ماهذا؟ من أين يخرج هذا الولد؟ أخرجوه لي من هنا." ثم رفع عصاه ليضربني. لكن ماري منعت، وقالت له: "سوف نتحدث فيما بعد، أيها السيد، والآن علي أن أقود هذا الطفل إلى فورش، ثم أعود". وحالما خرج من الزريبة قالت لي ماري: "لننحو بأنفسنا يابيير، فلنذهب من هنا بسرعة؛ لأن هذا الرجل شرير، ولن يفعل لنا إلا الشر". مررنا وقتئذٍ من وراء الأكديس، واجتزنا مرعى صغيراً، فصرنا في فورش لنبحث عنك. لكنك لم تكن هناك، ولم نرد أن نتظرك. وعندها لحق بنا هذا الرجل الذي كان يمتطي جواده الأسود، ونحونا بأنفسنا بعيداً، وأحتبأنا في الغابة. ثم جاء هو إلى الغابة أيضاً، وعندما كنا نسمع وقع بعيته، كنا نخشى. وعندما كان يمضي، كنا نستأنف الرخص لنصل إلى قريتنا.

وأخيراً أتيت أنتِ، ووجدتنا. هذا كلِّ ما حصل. أليس كذلك ياماري؟ هل
نسيْتُ شيئاً؟

-لا، ياصغيري بير، وهذه هي الحقيقة. والآن، ياجرمان، ستشهد معي،
وسوف تقول لكل الناس عندنا إنني إذا لم أتمكن من البقاء هناك، فليس لنُقصر
همني، وانعدام رغبتي في الشغل.

- قال جرمان، وأنت ياماري، أرجوك أن تسألي نفسك، عندما يتعلق
الأمر بالدفاع عن امرأة، ومعاقبة رجل وقع، عمّا إذا لم يكن رجل في الثامنة
والعشرين عجوزاً جداً أتمنى أن أعرف إن كان هذا الرجل لن يسحق
باستيان، أو أيّ صبي جميل آخر، يصغرني بعشر سنوات، كما يقول الصغير
بير: ما رأيك؟

-أعتقد، ياجرمان، أنك قدّمت لي خدمة عظيمة، وسأظلُّ أشكرك عليها
طوال حياتي.

- أهذا كلُّ شيء؟

-قال الصبي: يا أبي، لم أفكر بقول ما وعدتك به. للصغيرة ماري. لم
يكن عندي وقت، لكنني سأقول لها في البيت، وسأحكيه لجذتي أيضاً.

وأخيراً دعاه هذا الوعد من ابنه إلى التفكير. فعليه الآن أن يسوّغ سلوكه أمام أهل زوجته، وألاّ يفصح لهم، وهو يبيّن اعتراضاته على الأرملة غيران، عن أفكار أخرى هيّاته لهذا القدر من التبصّر والقسوة. فعندما يكون الإنسان سعيداً، مزهواً، يبدو الاندفاع يجعل الآخرين يقبلون سعادته أمراً يسيراً. لكن أن يكون مصدوداً، وملوماً من جانب آخر، فهذا ليس بالموقف المريح للغاية.

لحسن الحظ، كان الصغير يبير نائماً عند وصولهم إلى الإكارة، فوضّعه جرمان في فراشه دون أن يوقظه. ثم بدأ بكل التوضيحات التي استطاع تقديمها. جلس الأب موريس أمام البيت، على مقعده الواطي ذي القوائم الثلاث، يسمعه يوقار، ومع أنه تضايق من نتيجة هذا السفر، لأن جرمان، وهو يحكي عن طريقة تغزل الأرملة، طلب من خُمّوه إذا كان لديه الوقت ليذهب خلال اثنين وخمسين أحداً في السنة من أجل مُغازلتها، ويكون معرضاً للاستبعاد آخر العام. فأجابه خُمّوه وهو يهزّ رأسه علامة على الموافقة: "أنت لست غلطاً يا جرمان، فهذا غير ممكن". ولما حكى جرمان عمّا عاناه ليعيد الصغيرة ماري بأسرع ما يمكن كي يخلصها من الإهانة، وربما من اغتصاب سيّد لثيم، وافقه الأب موريس يهزّ رأسه أيضاً، قائلاً: "لم تكن غلطاً يا جرمان، فهذا واجب".

لما أنهى جرمان قصته، وقدّم مسوغاته كلها، زفر الأب موريس وزوجته معاً آهة خضوع عميقة وهما يتبادلان النظر. ثم نهض عميد الأسرة، قائلاً: هيّا بنا! فلنتحقّق إرادة الله! فالحبّ لا يخضع للإرادة!

-تعال تعشّ، يا جرمان، قالت حماته. من المؤسف أن القضية لم تنمّ بصورة أفضل؛ لكن، في النهاية، لم يشأ الله ذلك على ما يظهر. يجب أن نبحث في مكان آخر.

-نعم، أضاف العجوز، كما تقول زوجتي، سنرى مكاناً آخر.

لم يكن في البيت صوت آخر، وفي اليوم التالي، عندما استيقظ الصغير بيير مع القبرّات منذ الفجر، ولم تعد الأحداث الحارقة للأيام السابقة تُثيره، غرق في غَدَمِ الاكتراث المعهود عند صغار الفلاحين ممّن هم في مثل سنّه، ونسبي جملة ما شغل رأسه، وما عاد يفكّر إلا باللعب مع إخوته، وبأن يَسْتَرِجِل مع الثيران والأحصنة.

حاول جرمان أن ينسى أيضاً، وهو يغمر من جديد بالعمل؛ لكنه صار حزيناً، وشارداً إلى حدّ لاحظته الناس كلّهم. لم يعد يتكلّم مع الصغيرة ماري، ولا يراها إلا لئاماً؛ ومع ذلك، لو سُئِلَ في أيّ مرعى كانت، ومن أية طريق مرّت، وفي أية ساعة من النهار، يستطيع أن يجيب فيما لو أراد. ولم يجرؤ أن يطلب من حمّوّه استقبالها في المزرعة أثناء الشتاء، مع أنه كان يعرف جيداً أنها

تعاني البؤس. لكنها لم تكن تعانيه، إذ لم تستطع الأم غيبت أن تفهم أبداً كيف لا تنقص مؤونتها القليلة من الخطب، وكيف تمتلئ به سقيفتها في الصباح بعد أن تكون قد تركتها خالية تقريباً في المساء. وحصل الأمر نفسه بالقمح والبلاط. لقد كان أحدهم يدخل من كوة السقيفة، ويفرغ كيساً على الأرض دون أن يرقظ أحداً، ودون أن يترك أثراً. كانت العجوز قلقة من ذلك وسعيدة في آن معاً؛ وألزمت ابتها بالآ تحدث بأمره لأحد، قائلة إن الناس لو عرفوا المعجزة التي تحصل في بيتها، فسيعترونها ساحرة. كانت نعتقد اعتقاداً راسخاً أن للشيطان يداً فيها، لكنها لم تكن مستعجلة سعه لتستدعي تعزيمات الخوري إلى بيتها، وكانت تقول لنفسها سيحين الوقت الذي سيأتي فيه الشيطان ويطلب روحها مقابل حسناته.

كانت الصغيرة ماري تدرك الحقيقة على نحو أفضل، لكنها لم تكن تجرؤ أن تكلم جرمان بشأنها، مخافة أن يعود ثانية إلى فكرته بالزواج منها. وكانت تنظاها، إذ تلتقي به، بأنها لا تلاحظ شيئاً.

الفصل السادس عشر

السيدة مورييس

ذات يوم، بينما كانت السيدة مورييس وحدها في البستان مع جرمان، قالت له بلهجة ودودة: يا صهري الطيب، أعتقد أنك لست على مايرام. فأنت لا تأكل جيداً كالعادة، وما عدت تضحك، ويقلّ كلامك يوماً بعد يوم. هل أزعجك أحد من عندنا أو هل أزعجناك نحن دون إرادة ودراية منا؟

-لا، يا حماتي، أجاب جرمان، لقد كنت دائماً طيبة معي مثل أمي التي وضعتني في هذا العالم، وسأكون عاقلاً لو شكوتُ منك، أو من زوجك، أو من أيّ شخص في البيت.

-في هذه الحال، يا ولدي، إنه الحزن على فقدان زوجتك يعود إليك ثانية. فبدل أن يتلاشى مع الزمن، يزداد سوءاً. وعليك حتماً أن تفعل ما قاله لك حموك بحكمة تأمة: يجب أن تتزوج ثانية.

نعم، يا حماتي، قد تكون هذه فكرتي أيضاً؛ ولكن السيدات اللواتي كنتم نصحتنني بالبحثِ عنهنّ لأينابِسْنِي. وحينما أَرَاهُنَّ أفكّر بزواجي كاترين أكثر، بدل أن أنساها.

... الظاهر، يا جرمان، أننا لم نعرف كيف نُخَمِّن حقيقة ذوقك. عليك إذاً أن تُساعدنا بأن تقول لنا الحقيقة. لاشكّ في أن هناك امرأة في مكان ما مخلوقة لك؛ لأن الله سبحانه لا يخلق شخصاً دون أن يحفظ سعادته في شخص آخر (١). فإذا أنت وجدت المرأة التي تُلائمك، تزوّجها فوراً، سواء أكانت جميلة أم قبيحة، شابة أم عجوزاً، غنية أم فقيرة؛ فقد قرّرنا، أنا وزوجي، أن نشاركك مشاعرك: لأننا سَمِعْنَا من رؤيتك حزينا، ونحن لا يمكن أن نعيش بسلام ما لم نعيش أنت مُرتاحاً.

- يا حماتي، أنت رحيمة كالإله الرحيم، وحموي كذلك، أجب جرمان، لكنّ تعاطفكم معي لا يمكن أن يحمل علاجاً لعمومي: فإلنّيت التي أريدها لأتريديني.

- لأنها صغيرة جداً إذا؟ لكن من الخطأ أن ترتبط بينت صغيرة .

(١) هذه الفكرة التي تبدو شعبية للغاية موجودة في «المأدبة» لـ «أفلاطون».

-طيب! نعم، يا حماتي الطيبة، لقد جُنِنتُ وارتبطتُ ببنتٍ صغيرة، واليوم نفسي على ذلك. أحاول ألا أفكر بها قدر استطاعتي؛ لكن إن اشتغلتُ أو ارتُخِئتُ، إن كنتُ في القُدَّاس أو في سريري، مع أطفالي أو معكم، أفكر فيها دائماً، ولا أقدر على التفكير بشيءٍ آخر.

-إذاً يا جرمان هذا مثل سحر أَلْقَيْ عَلَيْكَ؟ وليس لهذا إلا دواء واحد، هو أن تغَيِّر تلك البنت رأيها وتسمعك. يجب أن أتدخل في الأمر، وأرى إن كان هذا ممكناً. ستقول لي أين هي، وما اسمها.

-يا لِلْحَسرة! يا حماتي الغالية، لا أجتراً، قال جرمان، لأنك سوف تسخرين مني.

-لن أسخر منك، يا جرمان، لأنك تتعذَّب، وأنا لأريد أن أزيد في عذابك. أهَي فانتِيتُ؟

-لا، يا حماتي، ليست هي أبداً .

-أو "روزيت" ؟

-لا

قل لي من هي إذاً، لأنني لن أنتهي، إذا كان يجب أن أَسْئَلُ بنات البلد كلهن.

أخفَضَ جرمان رأسه، ولم يستطع أن يُصمِّمَ على الجواب. قالت السيدة "هيا بنا، سأدعُك وشأنك اليوم، يا جرمان، ربما صبرتُ غداً أكثر ثقةً بي، أو أن كنتنا ستكون أكثر مهارة في التحقيق معك". وتناولت سَلَتَها لتُنشر غسيلها على شُجيرات الأدغال.

فعل جرمان مثل الأطفال الذين يقرّرون الكلام حينما لانعود نهتمُّ بهم. لحق حماته، وسمّى لها، في النهاية، الصغيرة ماري بنت السيِّدة غُيِّيت وهو يرتجف.

كانت دهشة السيدة موريس كبيرة: إنَّ ماري أُنحر بنت يمكن أن تُخطِر بناها. لكنها كانت لطيفة إذ لم تتعجَّب، وأبقت تعليقاتها في ذهنها. ثم إنها، وهي ترى صمَّتَها يُزِيلُك جرمان، مدّت إليه سَلَتَها قائلة له: " وهل هذه حُجَّة كي لا تساعدني في شغلي؟ تُخَذُ اجملُ السَلَّة إذا، وتعال احكِ لي. هل فكّرت جيداً يا جرمان؟ هل صمَّمتُ نهائياً؟

-للأسف يا حماتي الغالية، ليس هذا ما يجب التحدُّث عنه: قد أصمَّم لو كنت أستطيع النجاح، لكن وأنا أعرف أنها لن تسمعني، فلَسْتُ مُصمِّماً إلا على الشِّفاء منها إذا تمكَّنتُ .

-وإذا لم تتمكن؟

-لكل شيء نهاية، يا سيّدة موريس: فحينما يكون الحصان مُحملاً زيادةً،
يقع، وعندما لا يجد الثور ما يأكله، يموت.

-هذا يعني إذا أنك سوف تموت، إذا لم تنجح؟ لا سمح الله، يا جرمان!
لأجِب أن يقول رجل مثلك هذا الكلام، لأنه عندما يقوله، يكون قد فكّر
فيه. إن شجاعتك وافرة، وضعف الأقوياء خطير. هيا. كن مُتفائلاً. لا اعتقد
أنّ بنتاً فقيرة، أكرمتها كثيراً وانت تبحث عنها، يُمكن أن ترفضك.

-ومع ذلك، هذه هي الحقيقة، إنّها ترفضني.

-وما الأسباب التي يَبْتَنُّها لك؟

-أنكم أحسستم إليها دائماً، وأنّ عائلتها مدينة بالكثير لعائلتكم، وهي
لا تريد أن تزعمحكم بإبعادني عن زواجي من امرأة غنية.

-إن قالت هذا، فهي تبهن عن مشاعر طيّبة، وهذه نزاهة من جانبها.
لكنّها، وهي تقول لك ذلك، لا تشفيك أبداً من الحبّ، يا جرمان، لأنّها تقول
لك دون شكّ إنّها تُحبّك، وقد تنزوّجك فيما لو أرَدنا ذلك؟

-هذه هي المصيبة! فهي تقول إنّ قلبها لا يرتاح لي.

- وإن قالت مالا تعتقد به، لِتُبْعِدَكَ عنها بأفضل ما يمكن، فهي طفلة تستحق أن تُحبَّها، وأن نتغاضى عن مَنَعَةِ صِبْأها بسبب عقلها الكبير.

-نعم؟ قال جرمان يَضْمَعُه أملٌ لم يكن قد فكَّر فيه بعد: قد يكون هذا حكمة، وَوَاجِبًا معقولًا من جانبها لكن أخشى أن يكون سبب حكمتها الراجحة عدم إعجابها بي .

-قالت السيِّدة موريس: يا جرمان، سوف تُعِدُّني أن تكون مُطْعِمًا طيلة الأسبوع، وألاً تضطرب، وأن تأكل، وتنام، وتعود مَرِحًا كما كنت. وسوف أتكلَّم مع زوجي، فإن جعلته يوافق، ستعرف حينئذٍ شعور البنات الحقيقي تجاهك.

وَعُدَّها جرمان، وها هو الأسبوع يمضي دون أن يقول له الأب موريس أية كلمة خاصة، وبدا أنه لا يرتاب بشيء. وجهد الفلاح لِيُظهر هادئًا، لكنَّه كان دائماً أكثر سُحوباً واضطراباً.

الفصل السابع عشر

الصغيرة ماري

وأخيراً، يوم الأحد عند الخروج من الكنيسة، سأله حماته عما نال من صاحبته الطيبة منذ مُحادثتهما في البستان .

-فاجاب: لاشيء على الإطلاق. لم أَكَلَمَها أبداً .

-إذا كيف سَتَقْبَعُها إذا أَنتَ لم تُكَلِّمَها؟

- لم أَتَكَلَّمْ معها سوى مرّة واحدة. أَجاب جرمان. عندما كُنّا معاً في "فورش" ومنذ ذلك الحين لم أَقُلْ لها كلمة واحدة. فقد بلغ غَمِّي من رفضها أَنِّي أودّ ألا أَسْمَعها تُكرّر أَنها لا تُجِبُّني.

-طيب، يا ولدي، يجب أن تتحدّث معها الآن، فحَمُوكَ يسمح لك بذلك. هيا، تشجّع! أقول لك، وإذا لزم الأمر، أريدك أن تفعل، لأنك لا يمكن أن تبقى في هذه الحيرة.

أطاع جرمان. وصل إلى بيت السيّدَة عِثِيّت، رأسه منخفض، وهَيْئَتُهُ مُرتَبِكَة. الصغيرة ماري كانت وحيدة في زاوية قُرب الموقد، غارقة في التفكير حتى إنّها لم تشعر بِوُصول جرمان. وحينما رَأَتْه أمامها، قفزَتْ عن كُرْسِيِّها من رُقع المفاجأة، واحمرّت خجلاً.

قال لها جرمان وهو يجلس بالقرب منها: أيتها الصغيرة ماري، أَتَيْتُ لأزيد عَمَلِك، وأزعجك، أنا أعرف هذا جيّداً؛ إنّما الرجل وزوجته في بيتنا (محدّداً بذلك عَمِيْدَيْ الأُسرة)، يُريدان أن أتكلّم معك، وأطلب منك الزواج. أنت لا تُريدين ذلك. هذا ما أتوقّعه.

-أجابت الصغيرة ماري: إذاً أنت عازمٌ على حَيّ ياجرمان؟

-هذا يزعجك، أعرف ذلك، لكنّها ليست خطيئتي: إن كنتِ قادرة على تغيير رأيك، سأكون سعيداً للغاية، ولا شك أنني لا أستحق أن تُغيّر رأيك. هيا ياماري، أنظري إليّ، فأنا قبيحٌ جداً طبعاً؟

-أجابت مُبتَسِمة: لا، ياجرمان، أنت أجمل مني.

- لا تسخري، أنظري إليّ برأفة، لم أفقد حتى الآن شعرة من رأسي، ولا سنّاً من أسناني، وعيوني تقول لك إنها تُجَبِّك. أنظري في عينيّ، فهذا مكتوب فيهما، وآية بنت تعرف قراءة هذه الكتابة .

نظرت ماري في عينيّ جرمان باطمئنانها المبتهج، ثم أدارت رأسها فجاءة، وبدأت ترتجف .

قال جرمان: "آه يا إلهي! أنا أخيفك، أنتِ تنظرين إليّ كما لو كنتُ صاحب مزارع "أورمو". لا تخافي مني، أرجوك، فهذا يُعَذِّبني عذاباً فظيعاً. لن أقول لك كلاماً غير مناسب بعد ذلك، وأنا لن أقبلُك رغماً عنك، وعندما تودّين أن أذهب، فليس عليكِ إلّا أن تُشيرِي إلى الباب. هيا، هل يجب أن أخرج كي تهدئي؟

مبّت ماري يديها إلى الفلّاج، لكن دون أن تدير رأسها المنحني باتجاه الموقد، وذوّن ألا تُبَيِّنَ بِشَرَفَةٍ .

قال جرمان: "فهمت، أنتِ تَرِثُين حالي، لأنّك إنسانة طيّبة، وأنتِ غاضبة لأنّك ستجعليني بائساً. ومع ذلك فأنتِ غير قادرة على حيي؟

-وأخيراً أجابت الصغيرة ماري: لماذا تقول لي هذا الكلام يا جرمان؟ فأنتِ إذا تُريد أن تُبكيّني؟

أيها الصغيرة المسكينة، أعرف أنّ قلبك طيّب، لكنّك لا تُحبّيني،
وتُخفّين عنيّ وجّهك لأنّك تخشين أن أرى انزعاجك وقرّفك. وأنا لا أجرو
حتى على أن أضغط يدك في الغابة عندما كان ابني ينام، وكنت تنامين أيضاً،
كذبتُ أقبلك بهدوء. لكنني كنتُ ساموت من الخجل لو طلبتُ منك ذلك،
وقد عانيت في تلك الليلة مايعانيه رجلٌ يحرّق بنارٍ هادئة. ومنذ ذلك اليوم،
حلمت بك الليالي كلها. آه! كم كنتُ أقبلك ياماري! وكنت أنتِ تنامين
خلال تلك الليالي دون أن تحلمي. والآن، هل تعرفين لماذا أفكّر؟ بأنك لو
أدرت رأسك ونظرت إليّ كما أنظر إليك، وقربت وجهك من وجهي، فأعتقد
أنني ساموت من السعادة. وأنت تُفكّرين بأنه لو حصل لك الشيء ذاته، لُمتُ
من الغضب والخجل. !

كان جرمان يتكلم كما لو أنّه في حلم دون يعني مايقول. وكانت
الصغيرة ماري لاتزال ترتعد، لكنّها لما كان ارتعادها يزداد باطراد، لم يعد
جرمان بلا حظه، وفجأة، التفتت إليه، كان وجهها مخضلاً بالدموع، وكانت
تنظر إليه مُعابطة. فأعتقد الفلاح المسكين أنّها النظرة الأخيرة، فنهض ليمضي
دون ان ينتظر معرفة موقفها. لكنّ الصبية أوقفته وهي تُعطيه بذراعيها، وتخفي
رأسها في صدره: "أه! يا جرمان، قالت له وهي تنسج، لم تمزج إذاً أنسي
أحبك؟".

كان من الممكن أن يُجنَّ جرمان لو لم يَرُدَّ إليه صوابه ابْنه الذي كان
يبحثُ عنه حيث دخل الكوخ يعدو راكباً عصاه، مع أخته الصغيرة التي
تركب وراءه، تَجلد بِغُصْنٍ من الصفصاف ذلك الحصان الخيالي. فَفَوْر وصوله
حَمَلَه بين ذراعيه، ووضعهُ بين ذراعي خطيبته قائلاً لها: "تخذي لقد جعلتِ مني
بُجْبُلِكُ لي إنساناً أكثرَ من سعيد".

فهرست

5	تقديم
20	توضيح بقلم الكاتبة
23	الفصل الأول: من المؤلف إلى القارئ
30	الفصل الثاني: القلّاحة
43	الفصل الثالث: الأب مورييس
49	الفصل الرابع: جرمان الفلاح البارع
57	الفصل الخامس: الأرملة «شبيث»
65	الفصل السادس: بيبير الصغير
75	الفصل السابع: في البراح
83	الفصل الثامن: تحت السنديانة الضخمة
93	الفصل التاسع: صلوات العشاء
99	الفصل العاشر: ر غماً عن البرد
111	الفصل الحادي عشر: في العراء
121	الفصل الثاني عشر: متأنقة القرية

127.....	الفصل الثالث عشر : السيّد
137.....	الفصل الرابع عشر: المرأة العجوز
147.....	الفصل الخامس عشر : العودة إلى المزرعة
153.....	الفصل السادس عشر: السيّد موريس
159.....	الفصل السابع عشر : الصغيرة ماري

صدر حديثاً عن دار البناييع

- قراءات في الفكر السياسي العربي تأليف: د. حامد خليل
- عن بعض مظاهر أزمة الماركسية تأليف: د. ماهر الشريف
- أفلام وقضايا في السينما السورية والدراما التلفزيونية تأليف سعيد مراد
- الماركسية: من فلسفة للتغيير إلى فلسفة للتبرير تأليف: عطية مسوح
- الخطاب الإسماعيلي في التجديد الفكري الاسلامي المعاصر تأليف: علي نوح
- محاضرات في الوعي القومي الديمقراطي تأليف: توفيق المدني
- الإسماعيليون: تاريخهم وعقائدهم تأليف: د. فرهاد دفتري
- ترجمة : سيف الدين القصير
- رامة الشيطان /رواية/ تأليف: جورج صائد
- اللبس تأليف: وديع إسندر
- لغة هذا الزمان تأليف: الدكتور محمد بصل
- جيروت آشور الذي كان ترجمة: الدكتور أسود يوسف
- الفن في بلاد ما بين النهرين ترجمة: الدكتور كبرو لحلو
- بهائمات الرواية تأليف: الدكتور علي نجيب إبراهيم
- الطواسين وبستان المعرفة تأليف: الحسين بن منصور الحلاج
- تحقيق وتقديم: رضوان السح
- ابن الفارض شاعر الحب الإلهي. تأليف: يوسف سامي اليوسف

يصدر قريباً

- إسمي آرام تأليف: ولیم سارویان
- المارکسیة والدين ترجمة: محمد جمول
- قصائد حب إنكليزية تأليف: عبد الكريم الجبایعی
- المعجم المساعد في فهم القواعد تأليف: ابراهيم فاضل
- اللذة الأولى تأليف: يانیس ریتسوس
- النباتات الطيبة ترجمة: رفعت سلام
- العلاج الطبيعي والتداوي بالنباتات ترجمة: مينخائيل عيد
- تأليف: مجموعة من الباحثين
- ترجمة: سمیة الجندي

للطباعة والنشر والتوزيع

دمشق ص.ب: ٦٣٤٨

٨١١٦٠٦ - ٣٣٢٤٩١٤ ☎

٥١٣٨٤٦٨